أحاديث في الحرب

الصاغ (أركان الحرب)
محمد عبد الفتاح ابراهيم

الملازم أول
السيد فرج

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الى الذين شعارهم

الله والوطن والملك

المراجـــع

BLITZKRIEG . . . . F. O. MIKSCHE

General de Gaulle . . . . . . GALLICUS

Peoples' War, etc. . . . . . . TOM WINTRINGHAM

La Verité sur la France . . . . LOUIS LÉVY

How Russia Prepared . . . . MAURICE EDELMAN

Total War . . . . DENIS WHITELY

تقـــديم

لحضرة صاحب العزة الشيخ المحترم خليل ثابت بك

رئيس تحرير « المقطم »

كتب الكتاب من رجال السياسة والاقتصاد والجندية عن هذه الحرب الدائرة الرحى وهى لا تزال فى ذهن الدهر وتوقعوا مجىء يومها المحتوم ومطلعها المشئوم . ثم كتبوا وما برحوا يكتبون عنها بعد ما ذر قرنها وأقبلت على العالم بأرزائها . وستظل دهراً طويلا بعد ما تضع أوزارها موضوعاً خصباً للمفكرين ، وذوى الأقلام من مدنيين وعسكريين ، يكشفون النقاب عن بعض أسرارها ويجوبون آفاق البحث منقبين عن المجهول والمعلوم من أسبابها ، ويروون ما يتجلى لهم من غامض حقائقها والمستور من وقائعها بعيداً عن البلاغات الرسمية والدعايات اللاسلكية والصحافية ، ويتحدثون عن عواقبها ، وما نتج وما ينتظر أن ينتج من شرها وخيرها .

وليس فى كل هذا ما يبعث على العجب ، فالعالم فى تاريخه الطويل وعلى رغم أنهار الدم التى بللت أديم الأرض فى خلال عصوره ، لم يشهد لهذه الحرب الضروس مثيلا ، لا فى المبادىء ونظريات الحكم التى يدور القتال عليها ، وتتناحر دول الفريقين من أجل تغليب مبدأ على مبدأ منها ، ولا فى شمولها وامتداد رقعتها وترامى ميادينها ، حتى عمت سطح الكرة بحارها ويابستها وأجوائها، ولا فى اكتواء جميع الأمم شباناً وشيباً رجالاً ونساء وأطفالاً بنارها ، ولا فى تنوع ما يستعمل المقاتلون فيها من أسلحة ماضية ، تفردت بها دون جميع الحروب الماضية ، ولا فى تعبئة الموارد البشرية ومصادر الثروة المعدنية والصناعية والزراعية

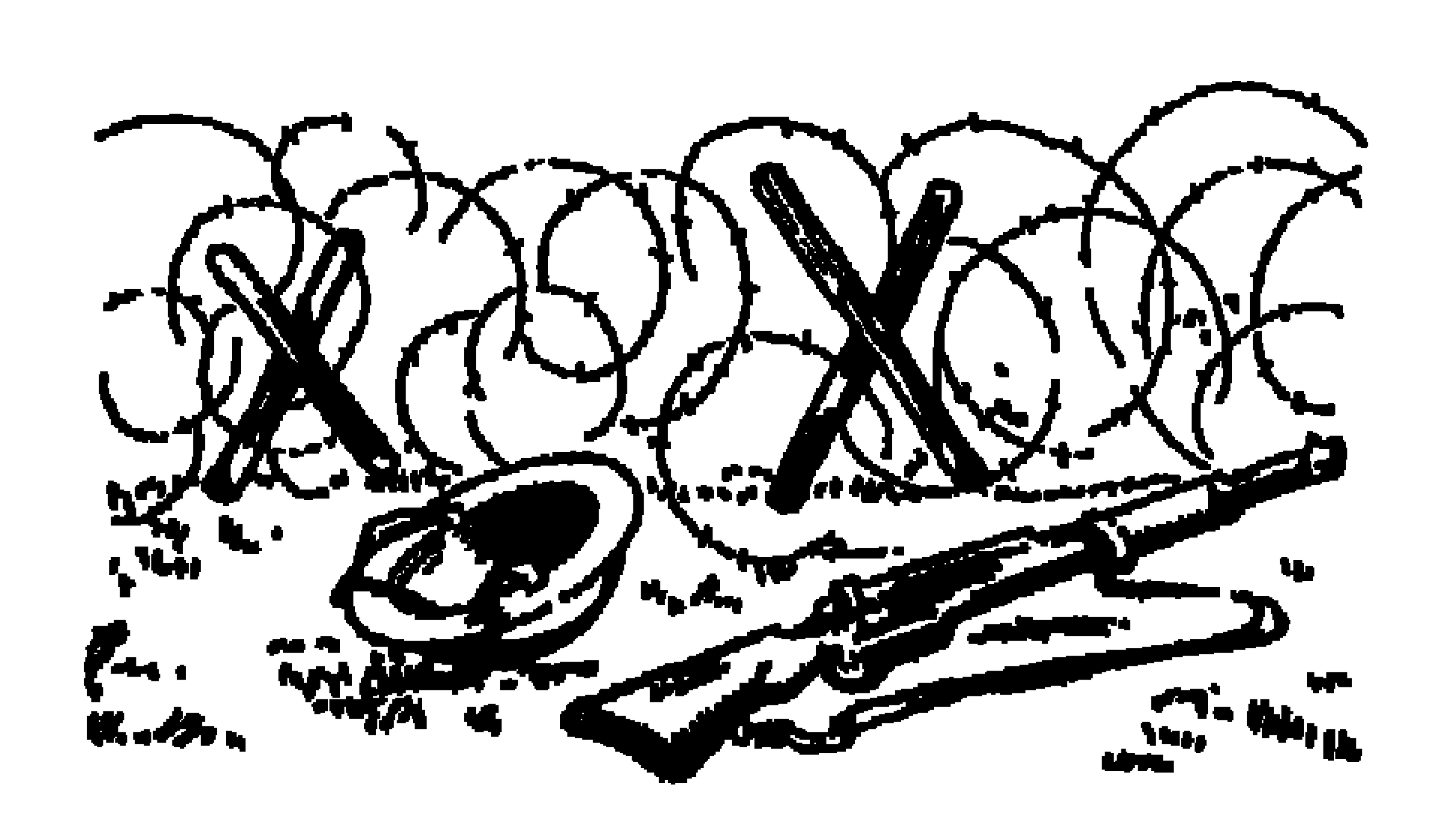
نقول لا وجه للعجب من أن يتبارى الكتاب من كل أمة ولسان فى تدوين أخبار هذه الحرب — على مارأيت من هولها — وفى علاج حوادثها ووصف روائع مفاجآتها وإبراز ما تخلل معاركها من آيات البطولة المنقطعة النظير مما يقرأه الناس ويبغون من ورائه العلم والعظة

وما الكتاب الذى أقدمه بهذه الكلمة للقراء « أحاديث فى الحرب » إلا فصل من فصول هذه الموسوعة الضخمة أو سفر من الأسفار التى ستحتويها مكتبة أدبيات الحرب . وحسب القارىء أن يكون مؤلفاه جنديين ، وأن أحدهما هو مؤلف كتاب «هذه هى الحرب» ، والجنود أشد الناس صلة بفن القتال، فهم من أقدرهم فهما لوقائعه وإدراكا لمعمياته ، وقد عالجاه معالجة مطلع حافل الجعبة ، ألم بما سبق الحرب من مساع سياسية لمنع

شبوب لظاها، وماعقب هذه المساعى الخائبة من انفجار بركانها وانقذاف حممها ، وما أعد لها من عتاد وسلاح مستحدث قلب أوضاع الحرب رأساً على عقب ، وما ابتكر من خطط وتكتيكات لا عهد للحروب بها ، وما للطائرة والدبابة من نصيب أيما نصيب فى تحويلها إلى حرب حركة سريعة تخطف الأبصار

وعرّجا على نكبة فرنسا وما قيل عن عوامل انهيارها . وكان مسك الختام تمجيد البسالة الروسية وعجائب فعال الروس العسكرية ، مع التدقيق فى الرواية والرجوع إلى المصادر الموثوق بها على قدر ما يتيسر للكاتب ، وسحب دخان المعارك لا تزال تحجب كثيراً من الحقائق

غير أن الشيء الذى يسرنى أن أنوه به هو أن فى صدور هذا الكتاب دلالة حسنة على أن شباب ضباطنا متتبعون باهتمام ويقظة كل ما ينشر عن هذه الحرب ، حريصون على جنى الفائدة منها ، مهتمون بالتزود بأحدث المعلومات ، مما يبشر بمستقبل باهر لجيشنا المظفر إن شاء الله



صراع أممي وحرب عالمية

ويسأل الانسان نفسه : ألا يمكن أن يستريح
العالم من الحرب ؟ وينظر فاذا الماضي سلسلة
من الحروب ، كأن الحرب جزء من الحياة
وشر لا بد منه . . ويخرج من تفكيره
بتصميم قاطع أن « استعدوا للحرب »

عند ما نفض الناس أيديهم من الحرب العالمية الأولى توقعوا سلاما إلى الأبد ، أو سلما طويل الأمد ، وحق لهم حينذاك أن يدمروا الأسلحة وأن يغلقوا مصانع الحرب . . ذلك أنهم شهدوا الفواجع واصطلوا بالنيران ، وتعرضت بلادهم لأقسى المحن وأشد الخطوب ، الغالب والمغلوب . . ولم تكسب الأمم المتحاربة كثيراً من الحرب إذا استعرضت الخسائر والضحايا والآلام ، فكان بديهياً أن تنتهي الحرب إلى غير رجعة وأن يستقر السلام

فلما ضاع صوت الطلقة الأخيرة ورفرفت حمائم السلام ، صرخ كل إنسان من فرحه ، ورفعت الأعلام في كل بلد ، وغمرت المباهج

كل بيت مهما كان بعيدا ، ومهما كان خاسراً ، كأن الحرب كانت حجراً ثقيلا على كل قلب ، وحلما رهيباً فى مخيلة كل إنسان ، فلما رفع ذلك الحجر وانحسر ذلك الحلم ، أفاق العالم كله على دنيا جديدة ، وعادت الحياة بزخرفها تطغى على كل الصور القاتمة التى خلفتها وراءها الحرب . . .

إنه يوم المدنة ! ولكن هل ننسى أن مثل هذا اليوم جاء فى تواريخ أخرى ؟ وكلما انتهى جيل من حربه قال ناسه إن الحرب لن تعود ! وتطوى السنون وتتعاقب الأحداث ، ثم يعيد التاريخ نفسه وتجىء المأساة الكبرى . والبشر لا يعتبر ، أو هو عاجز عن رد الشر ! وأتعس الأنام من لا تغيره دروس الماضى وعظات الأيام

فى هذا اليوم عاد الجنود الذين خاضوا غمار الصراع الدموى على ركام من الجثث ، والكثيرون منهم عادوا يحملون فى أجسامهم آثار الحراب والرصاص ، وتغطى جباههم صور العذاب الذى كان فوق الطاقة . . فسلموا أسلحتهم وأبدلوا ثيابهم وعادوا بعد أيام سيرتهم الأولى ، مدنيين مسالمين يجيدون أعمالاً أخرى غير التدمير والقتل ، وقد فارقهم التجهم والغضب وزالت عنهم روح الحقد والشر بعد أن لازمتهم أربع سنوات لم يفكروا فيها بغير الاعتداء والولوغ فى الدماء

ولم يسلم بيت من صورة مجللة بالسواد للزوج أو الوالد ، للشقيق أو الولد ، ووريت جثته فى مقابر الشهداء ، مجهولاً قد يكون ، ولكن هذه المقابر لا يهملها التاريخ ولا تنساها الأوطان ، لانها تضم رماد الحريق الانسانى الكبير

وما كان هؤلاء جميعاً راغبين فى الحرب ، فقد كانت هناك أوطان مسالمة لم تتدخل فى المسائل الدولية التى كان عليها النزاع، ولم تعط صوتها فى جانب ، ولكن آثرت الابتعاد وحرصت على تنفيـذ سياسة الحياد ، واطمأنت لعزلتها و براءتها، فلم تتوقع هجوماًولم تعد نفسها للقتال، و إذا بها تفاجأ بالحرب بين عشية وضحاها ، إذ ضرب بحيادها عرض الحائط ، واعتدى على أرضها فى أبشع صور الخيانة والغدر . . ذلك لأنها حرب عالمية ، فلا معنى للحياد ولا مندوحة من قبول الحرب القظيعة إن آجلا أو عاجلاً

والغريب أن الصورة هى هى ، ففى كل مرة تلقى الوعود والتأكيدات جزافاً ، وتعقد المؤتمرات وتعلن المعاهدات ثم يفاجىء القوى الضعيف ، و يعتدى القادر ، و يقولون فى ذلك : « أن السياسة هى أن تقتنع بأن لك حقا فيما تراه يصلح لك ! وأن السياسة الجيدة هى أن تصرع الآخرين وتسودهم ! ! وأن القضاء على جيرانك هو خير وسيلة لاتقاء شرهم ! ! ! » و إذن فلا حرمة للعهود ولا قيمة للمواثيق ، ولا سبيل لمواجهة القوة بغير القوة

إننا نواجه حربا عالمية ، ولا سبيل لنا بالبقاء إلا إذا كنا أقوياء

ونحن نواجه حربا أممية جامعة ، ولا وسيلة لـكسبها إلا إذا أعد الجيش إعدادا عصريا ودربت الأمة تدريباً قوياً

وقد أثبتت الحرب العالمية الأولى أن للعامل فى مصنعه أهمية

مثل ما للجندى فى وحدته ، وأن للقوة المعنوية شأناً خطيراً ، وأن إحراز النصر يستلزم تعبئة جميع الموارد والرجال .

ولم يعد مصير الحرب يتوقف على الجهود العسكرية وحدها ، فان الجبهة الثانية — جبهة الشعب — يجب أن توزن وأن تقدر ، وقد بدأت بواكير الحرب الجامعة تظهر فى الحرب العظمى ، فقد استدعيت طبقات من المجندين قبل أن يحين موعدهم ، وانتظم فيها كثير من المتطوعين ، من مختلف المهن والأعمال ، فشقوا طريقهم اليها بخبرة محدودة ، وأدوا فعالا باهرة ، وقد ظهر بصفة لا تقبل الجدل أن العامل الأكبر فى الهزيمة لم يكن عاملاً عسكريا ، وكان الشعور الذى يسود الدول المهزومة هو أن جيوشهم قد أدت واجبها كاملا ، ولكنها هزمت نتيجة لهزيمة الجبهة الداخلية ، بسبب الملل والدسائس والدعايات التى قهرت القوى المعنوية ، فسقطت الأمة قبل هزيمة الجيش ! وإذن فالشعب يجب أن يعد للمقاومة والكفاح واحتمال ويلات الحرب ، والاشتراك بكل ما يسعه من مجهود وتضحية لكسب المعركة التى يتعلق مصيره بنتائجها .

وما دامت البلاد قوية فستحصل على ما تريد ، والقادر عند ما يطلب يجد ، وقد تحقق ذلك فى أحداث كثيرة وغزوات سلمية لم تبذل فيها قطرة من الدماء ، وكلما ظهر تراخ فى مسألة ما ظهرت طلبات جديدة أشد خطراً ، وبذلك كانت الديمقراطيات تشترى فترات وجيزة من السلم بالخضوع والتسليم .

والبلاد التى استعدت ، حكومة وجيشاً وشعباً ، تدخل الحرب بثقة كبيرة فى النصر ، بل هى تسعى إلى الحرب لتحصل على ما لم تستطع الحصول عليه بالتهديد ، وقد استعدت لحرب خاطفة لا تكتفى فيها بأنصاف التدابير ، ولكن لتضرب ضربة مروعة فتختزل الحرب وتخدم الانسانية ؟ !

كانت هذه خطة الدكتاتوريات العسكرية وهى تفكر فى الأحداث المتوقعة ، بعد أن فرغت من استعداداتها لكل احتمال ، وأعدت أداة الحرب لعمليات خاطفة وانقضاض سريع قبل أن تتكرر أسطورة الملل فى الجبهة الداخلية ، وتعود قصة شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ مرة أخرى .

وكان الذين يسعون للتهدئة ويعدون فى محاولاتهم لانقاذ السلم يقدرون ما سوف تتعرض له بلادهم من الأهوال والنكبات ، كانوا يعرفون أن الحرب لن تكون بين الجنود وحدهم ، ولكنها ستتخذ صورة شاملة تجعل كل فرد رهن سطوتها ، وكانت فكرة ضرب المدن بالطائرات تشيع الهول فى نفوس المؤتمرين ، فلما انتهت الأحداث السياسية بعقد مؤتمر ميونخ ، وتمت التسوية بآخر تضحية ممكنة هتفت جميع شعوب الأرض لمندوبيها ، الذين أنقذوا العالم من الدمار . ولكن كانت المأساة مقبلة ، ولا طاقة لأحد أن يمنعها

وفى هذه الفترة كان الشعور يتزايد بما تخبئه الأ كمة وراءها ، وجاء عمل الديمقراطيات متأخراً ، فقد كانت مطمئنة إلى ثقة الرأى العام ،

مؤيدة بنتائج الحرب الماضية ، مدركة عزوف العالم عن الحرب التى شهدها نفس الجيل . . فلما أخفقت جميع المحاولات السلمية ولم يعد مندوحة من الاستعداد للشر المقبل ، راحت تعبىء الجهود للحرب تعبئة رصينة متمهلة ، تبعاً لضرورة إفهام الأفراد بأن سلامتهم قد باتت مهددة ، وأن المحاولات المتعددة لايقاف الحرب لم تجد قبولا من المعسكر الآخر المصمم على إعادة الفواجع ، ورغبة فى إقناع البلاد الصغيرة والأمم المحايدة بما يعده العدو الراغب فى التدمير وإراقة الدماء . .

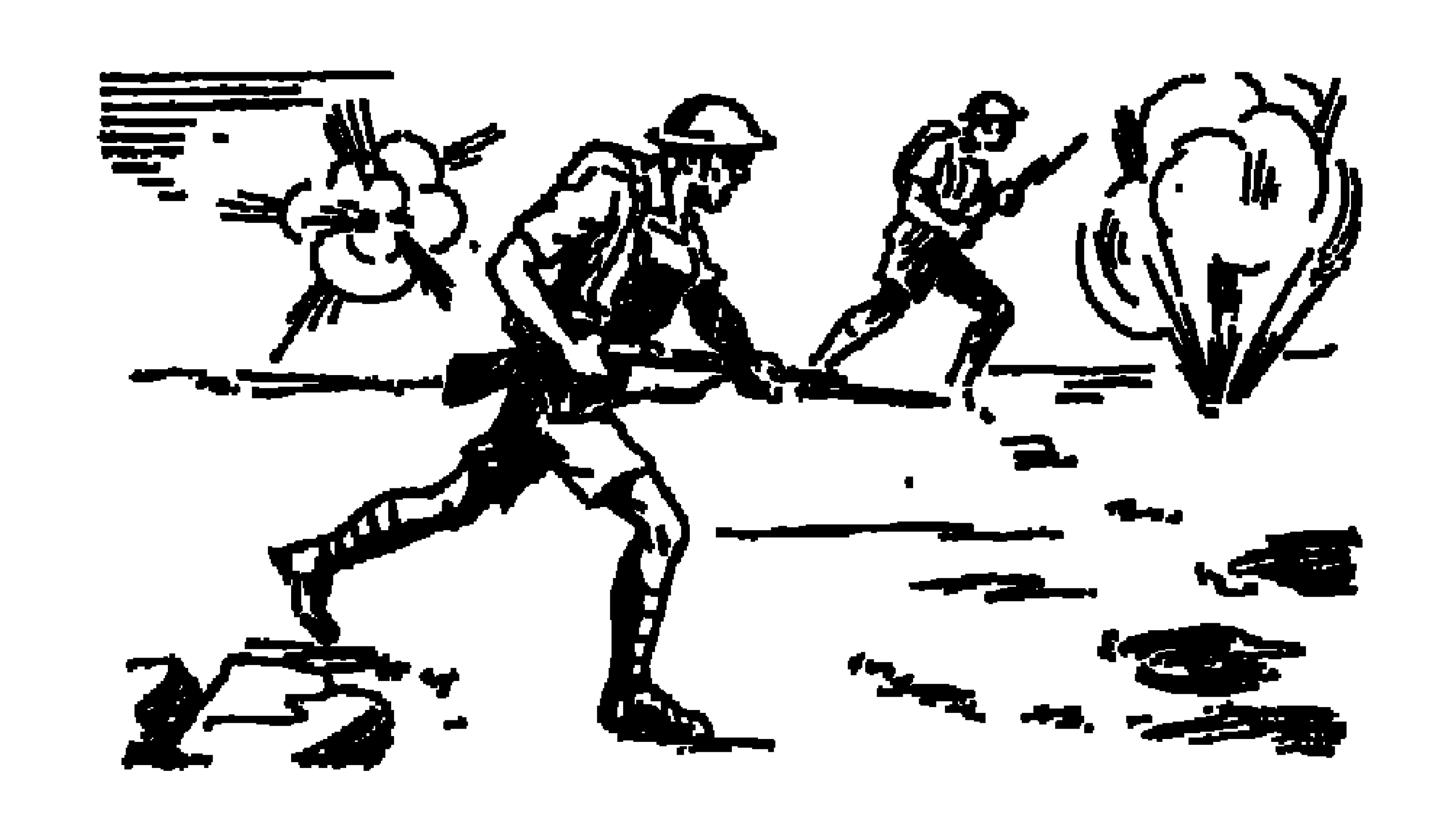
وجاءت المقدمات مبشرة بحرب عالمية جامعة ، وقتال دموى رهيب ، فقد كانت نتيجة التطور الميكانيكى فى التسليح والنقل كبيرة ، وقد وجد أن كل جندى فى الخطوط الأمامية أثناء الحرب العظمى كان وراءه سبعة عشر رجلا آخرون يعملون فى المواصلات والتموين والاحتياطات ، ليمكنوه من أن يخطو خطوات وئيدة إلى الأمام لطرد العدو من خنادقه .. ولا جدال فى أن هذا العدو قد زاد زيادة غير قليلة تبعاً لتطور الأسلحة ، و تبعا للصور المستحدثة فى العمليات الحربية ، ولهذا كان ضرورياً أن تكثر القوى البشرية وأن تتضاعف القوى النارية ، كى تنتهى الحرب بسرعة وتختصر الآلام . والمسألة ليست مسألة أفراد بل مسألة وقت، وتضحية عشرة ملايين لإنهاء الحرب فى شهر خير من خسارة خمسة ملايين ثم بقاء الحرب لأربع سنوات

وصحبت هذه الحاجة إلى زيادة عدد الأفراد عوامل أخرى هدامة للجنس البشرى كانخفاض نسبة الزواج وعزوف النساء عن

الأمومة ، فكانت نتيجة ذلك الاضطرار لاستخدام الفتيات فى الأعمال الحربية ، وقد اتسعت رقعة هذه الظاهرة فى الجيش والأسطول الجوى ، لحيث يمكن أن تقوم المرأة بالعمل أُخرج الرجل وأرسل إلى الجبهة ، وحلت المرأة فى المصانع وقيادة العربات والأعمال الكتابية ، بل ودربت تدريباً عسكريا وكوّنت ما سموه « جيش النساء »

و بذلك انتهى الناس ، شاءوا أو لم يشاءوا ، إلى حرب جامعة يشترك فيها جميـع الأفراد وتعبأ لأجلها جميع الوارد ، واتنهوا إلى هذا الوضع بسبب الرغبة فى سرعة إنهاء الحرب ، و بسبب الأسلحة الحديثة ، و بسبب أن مقاومة الأمة هى محور الحرب وأساس جميع الخطط والعمليات المؤدية إلى النصر .

وفى هذا يقول دينيس و يتلى : « إن الحرب الجامعة لها جميع مظاهر الحرب الأهلية والحرب الدينية ، فهى حرب كلية تظهر فيها تسبئة جميع القوى لإنتاج أعظم ما يمكن من الأعمال فى أقل ما يمكن من الوقت . . فلذلك يجب أن يوقف كل شىء فى الدولة لحاجة الأداة الحربية ، وأن تكون الفكرة الوصول إلى عمل حاسم سريع ، و بلوغ النصر كيفما كان أسلوب العمل وقانونيته .. كما يجب أن يعرف الجميع أن العامل الأساسى فى الحرب الجامعة هو العامل العقلى . . فالأمة التى لم يكون أفرادها بفكرة الحرب عن عقيدة و إيمان ، تكون قد خسرت نصف المعركة قبل بدء القتال .. »



مقدمات هذه الحرب

إن الحرب دائماً فى تغير مستمر ، والأسلحة
الحديثة تحتم أوضاعاً جديدة للقتال ، فالتنبؤ
بهذا التطور الفنى قبل حدوثه ، وإدراك
مدى تأثير الأسلحة فى المعركة ، واستخدام
الأساليب الحديثة قبل الآخرين . . هذه
كلها عوامل حيوية لكسب الحرب . . . .

عند ما يسدل الستار على آخر فصول هذه الحرب ، ويشرع المؤرّخون فى تدوين ملاحظاتهم ونشر ما يعِنّ لهم من آراء فلا شك أننا سنطالع صحفاً كثيرة بل مؤلفات ضافية الفصول عن قيمة التفكير الصائب والدور الذى لعبه بعد النظر فيما وقع من أحداث ، وسيذكرون حتما قيمة الأخطاء التى نتجت عن التقيد بالنظريات القديمة والاكتفاء بالتجارب السابقة دون سعى إلى التجديد تمشياً مع روح العصر وضروريات التطوّر .

إن الحرب ظاهرة متغيرة تتبع سنة التجديد والارتقاء ، نظراً

لتطوّر الأسلحة وتأثير ذلك فى الخطط والعمليات الحربيــة ، ولذلك لا تحدث معركة على نظام معركة سابقة ، ولا نجد فى التاريخ العسكرى حربين متشابهتين ، فكل حرب جديدة تجيء أكثر عنفاً من سابقاتها ، وأكثر تفوقاً فى قوة النيران ، ومرونة الأسلحة ، وارتقاء الخطط . . وهذا هو ما عناه كارل فون كلوزفتز بقوله « كلما عدنا إلى الوراء فى دراسة التاريخ الحربى أخذت قيمة بحوثنا تتضاءل وتهون . . »

ومثال ذلك نرى ما تتطوّر إليه قوة النيران فى زيادة عجيبة مطردة ، فقد كانت كتيبة المشاة بأجمعها ، فى عهد نابليون بونابرت ، تنتج ألفى رصاصة . أما فى الحرب العظمى فإن هذه الكمية من النيران كانت تنتجها ثلاثة رشاشات فى أيدى ثلاثة رجال !

فالذين درسوا أسلحة الحرب العظمى وكان يحالفهم التفكير الصائب ، أدركوا أن الحرب المقبلة ستكون شيئاً مغايراً لما عرفوه من قبل ، فالأسلحة التى استخدمت فى الحرب السابقة ما كان يمكن أن تظل كما كانت ، وستزاد قوّة النيران ، وسيكون استخدام القوى ذات الدروع أمراً رئيسياً ، فالصور القديمة لن تشاهد على الستار الجديد ، والمأساة ستجيء فى صور أخرى أشد هولا وأقوى على سفك الدماء وإشاعة الكوارث (*) .

(*) ولذلك قيل إن المانيا قد استفادت من نزع سلاحها عقب الحرب الماضية لأنها عندما بدأت من جديد لم يعقها عائق من ناحية العتاد القديم ولم تتقيد بذلك النوع من التنظيم ، فنجاحها فى المرحلة الأولى لهذه الحرب إنما يرجع الى تجريدها من السلاح سنة ١٩١٩

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية مسبوقة بالمقدمات ، مبدوءة بعلامات واضحة ، ظهرت فيما أنتجته المصانع من أسلحة ومعدّات ، وفيما أظهرته التجارب والمناورات من أساليب جديدة وخطط مستحدثة .

و بدت صورة هذا فيما وقع فى الحرب الأهلية فى أسبانيا ، هذه الحرب التى كانت فى الواقع تجربة كاملة للحرب العصرية فى أسلحتها ومعداتها وأساليبها . . فكيف يمكن أن نتقبل بعد ذلك اقتناع نفر من المفكرين العسكريين بانتظار نفس الحرب التى عرفوها قبل خمسة وعشرين عاما ؟ وأن يتوقعوا نفس المشاهد والأحداث التى خبروها منذ ربع قرن ، وكأن الحرب لا تتغير ، فأعدوا عدتهم لحرب ثابتة تتحطم خلالها هجمات الغزاة كما حدث فى الخنادق عام ١٩١٦

لقد كسب الحلفاء الحرب الماضية ، وكان من أسباب هذا الكسب ثباتهم فى الخنادق وصمودهم للأعمال الهجومية ، فظنوا أنه من الممكن أن يعيدوا تمثيل هذا الدور . . ، وكانت هزيمة الألمان راجعة إلى ثبات الحلفاء وصمود خطوط دفاعهم التى أخفقت فى اختراقها جميع المحاولات . فلم يحبوا أن يتبعوا نفس العمل الذى سبب انكسارهم ، وفكروا فى أساليب أخرى ، و بحثوا مبادىء جديدة وصحيحة لاستخدام الأسلحة الحديثة وخوض المعارك ، والمعارك الهجومية الخاطفة بنوع خاص

لم ينس الفرنسيون خطوط الخنادق التى أوقفت الغزو وأنقذت المجد الفرنسى من هزيمة ماحقة ، فأكبروا عمليات الدفاع

وجعلوه أساس نظرياتهم الحربية ، فلم يشغلوا أنفسهم بغير الدفاع على طول الجبهة . وحفروا الأرض وأنشأوا من الحديد والصخر خط ماجينو، ثم اطمأنوا لذلك الحائط الصلب الذى ظنوا أنه سيحميهم ويدفع عنهم غوائل الشر ، وأعرضوا عن كل النظريات المستحدثة فى الحرب وخططها ، وقبعت جيوشهم تقضى الوقت فى أعمال عادية ، وترك القادة ميادينهم كأنهم انتهوا من التجارب والمناورات ، فراحوا يقررون خططهم الحربية على الورق ومصورات المكاتب !

وكانت النتيجة أن خط ماجينو لم يعق المغير ، ولكن عاق فهم الفرنسيين للحرب الحديثة ، فقد كان كل تفكيرهم محصوراً فى الحرب الثابتة ، وأنساهم ذلك أن العملية الواحدة لاتتكرر فى الحرب ، وأن التحصينات الضخمة لم تفد أصحابها ، بل ربما جاء وقت كانت فيه وبالاً عليهم ، فماذا فعل حائط الصين العظيم ؟ أو أسوار الرومان القديمة ، وغيرها من التحصينات الثابتة التى كانت تقتضيها ظروف خاصة ، ثم انقلبت على أصحابها لحصرتهم تكتيكياً واستراتيجياً ، وفرضت عليهم أوضاعاً خاصة وخططاً معينة ، حتى بات من المتعذر عليهم أن يهاجموا أو ينتصروا .

إن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، هكذا قال كلوزفتز ، المشرع الحربى الكبير ، ورأيه فى ذلك أن الدفاع وحده يضطر أصحابه إلى القتال فى ظروف قد لاتناسبهم ، وهذا ما لا يرضاه العسكرى الكبير مادام

يستطيع أن يتلافاه .. فالمبادأة ، وحرية العمل ، والروح الهجومية، هذه كلها هى التى تكسب الحرب . . ولذلك لم يكن غريباً أن يبدأ الألمان الحرب مهاجمين، وأن يبدأوها منتصرين. فاذا استخلصت أسباباً كثيرة لهذه الانتصارات فأرجعها جميعاً إلى أصل واحد ، هو نجاح تفكيرهم وتمام معرفتهم بالحرب الحديثة

فاذا وقعت الحرب بين جيلين مختلفين من المفكرين ، أحدهما لا يعرف غير نظريات نجحت قبل ربع قرن ، والآخر متجدد الشباب عصرى النزعة مشرب بالتطور الحديث . . كانت نتيجة المعركة فى جانب الآخر ، ولهذا فانه عندما وصلت مأساة فرنسا إلى أخطر مراحلها وتكلم بول رينو فى شهر مايو سنة ٤٠ قال : « الحقيقة أن أفكارنا الحربية القديمة قد تصادمت مع النظريات العصرية . . إن أهم ما نحن بحاجة اليه هو التفكير الصائب ، فلا بد لنا أن نفكر فى طرائق الحرب الحديثة التى نواجهها وأن نتخذ اجراءات حاسمة . . »

وفى الحرب العالمية الأولى ظهرت قيمة سلاحين خطيرين : الطائرة والدبابة ، فالذى كسر حدة الهجوم الألمانى وقلب الهزيمة فى الجبهة الغربية إلى نصر ساحق بما يشبه المعجزات ، إنما كان تفوق البريطانيين فى الأعمال الجوية مصحوبا باستخدام الدبابات ، فكان ذلك تنبيهاً بأن القوة الجوية ستكون عاملاً فاصلاً فى الحرب المقبلة . وقد فطن الألمان إلى ذلك ، وكان التوفيق العظيم الذى أحرزوه فى تسوية ميونخ يرجع

لتحققهم من السيطرة الجوية التامة ، والتطور الذى بلغته طائراتهم قد أتاح لهم نتائج مثمرة فى هذه الحرب

والأمة التى لا تملك الكفاية من القوة الجوية لا تحتمل الضغط الذى توجهه إليها دولة أخرى أسطولها الجوى قوى . فالقوة المعنوية عند المدنيين لا يمكن أن تستمر مع عمليات التدمير المتتابعة . والمصانع لا تستطيع موالاة العمل وسط إغارات العدو المتواصلة . والمواصلات لا يمكن أن تتحمل استمرار التدمير والتخريب مهما بلغت احتياطات الوقاية والدفاع السلبى ، ولا شىء يجدى غير مجهود القوة الجوية وعملها الايجابى المستمر . وقد أدرك الألمان ذلك فكانوا ينتجون ألف طائرة فى الشهر فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تنتج سبعاً وثلاثين طائرة فقط ؟ !

وشهد المفكرون الألمان الدور الذى قامت به الدبابات ، فاحتضنوا ذلك السلاح الهجومى الرهيب . وكان هناك من يسأل : هل الدبابات سلاح للاختراق لا يقهر ، أم أن « كمبرى » كانت حدثاً لا يتكرر؟ فقالت تجاريبهم قولتها ، ولم تترك القيادة الألمانية أية فرصة للبحث ، فناقشت موضوع استخدام الدبابات عملياً فى كل صورة ، وانتهت إلى أن عهداً حربياً جديداً قد بدأ بظهور القوات المدرعة ، وأن جموع المشاة لا تجدى نفعاً أمامها ، وتنبأت بما ستحدثه محركات الاحتراق الداخلى من تأثير فى الجيوش وقلب أساليب عملها . ومن ثمة بدأت ألمانيا إعداد القوات الميكانيكية فى جموع كبيرة

وقد عرف فى الحرب الماضيـة قيمة الدعاية ومدى تأثيرها المعنوى ، فالدعاية ضد العدو ترمى إلى تحطيم قواه المعنوية و إنماء الشعور بالهزيمة و إثارة الحركات الثورية ضد الإصرار على مداومة الحرب ، وقد جاء فى كتاب « كفاحى » أن حرب الدعاية التى أثارها الحلفاء كانت السبب الرئيسى فى هزيمة ألمانيا الماضية

واستفاد الألمان من هذا الدرس ، وعرفوا كيف يربحون من ورائه ، وقد كان نابليون يقول : إن الروح المعنوية ثلاثة أضـعاف القوة المادية ، فاستطاعت الدعاية الألمانية أن تهدم الروح المعنوية فى فرنسا بالنشرات والمذياع ، فلما أوجدت التربة الخصبة بعثت بالمأجورين يروجون الاشاعات ؟ ! وكانت بوادر غزو الألمان لأوربا سريان الخطب والاذاعات والدعاية فى هجوم كبير لإرهاق الأعصـاب وتدمير العزائم ، حتى بات الناس من خوف الحرب فى حرب ، فسلموا فى المبادأة ، وقنعوا بالانتظار ، انتظار الخطر الذى وعدتهم به الدعاية . . كانوا يتمنون النجاة ولايفكرون فى الاسـتعداد ، ويعرفون الشر المقبل ولا يملكون وسيلة لدفعه ، فحدث الفزع والارتياب ، والخوف من و يلات الحرب وخمدت المقاومة قبل أن يبدأ أى هجوم برى ، وارتسمت الهزيمة قبل بدء المعارك . .

وكان الفرنسيون حقاً قد خسروا نصف المعركة قبل أن تطلق رصاصة واحدة فى غرب أوربا .

وكانت الجاسوسية من الوسائل الناجحة فى الحرب الماضية للحصول على المعلومات وكشف الأسرار العسكرية ، واستخدم فى ذلك أفراد متسترون وجماعات مغامرة ، ظهرت بعض حيلهم ولم يظهر الكثير منها ، ولكن هذه الصور المستحدثة للحرب كانت تتطلب تجديداً فى هذا الاستخدام ، هى تحتاج وجوهاً جديدة لا تثير الشك ليمكن أن تصل إلى أبعد مما يصل إليه الجواسيس ، فالجواسيس يصلون إلى الرؤوس لاقتناص المعلومات، ولكن هذه الحرب تتطلب الوصول إلى القلوب لنشر الفزع ، ولهذا استخدم أفراد وجماعات من أبناء البلاد أغرتهم المادة لخيانة أوطانهم وتمهيد أسباب هزيمتها ، وهم أقدر العارفين بأسرارها وأسلحتها وقواها المختلفة ، فنجحت المحاولة نجاحاً منقطع النظير ، حتى قال « فرانكو » مفاخراً : « عند ما أتقدم بطوابيرى الأربعة صوب مدريد يكون الطابور الخامس قد مهد الطريق وفتح أبواب النصر »

وجنود المظلات أيضاً كانت لها سابقة كبرى،فان المظلات كانت معروفة فى الحرب الماضية ، وإن كان استخدامها مقصوراً على تمكين الطيارين من الهبوط فى أوقات تعرضهم للخطر ، فأوحى ذلك بفكرة استخدامها فى إنزال الجنود أثناء العمليات الحربية ، و إعطائهم واجبات خاصة قد لا يكون أداؤها ميسوراً بغير هذه الوسيلة ، فكان اكتشافاً فذاً ، واستغلالاً ناجحاً .

وقد ظهرت هذه العمليات المبتكرة فى روسيا ، فأجريت عدة

مناورات لإنزال الجنود من الطائرات ومعهم مدافع خفيفة ورشاشات ، واستغلت ألمانيا هذه التجارب وتنبهت لذلك الإنذار ، وأخذت في إعداد « مشاة الجو » و إيصالها إلى مكان بارز بين أسلحة الحرب المفاجئة التي أخضعت بها أوربا .

وجاءت الحرب الأهلية الأسبانية معرضاً للتجارب الحربية الحديثة ، فإن مراقباً عسكرياً حصيفاً كان لا يخطىء كشف مجموعة كبيرة من التجارب وملاحظة الخواص الفنية للأسلحة وطرق استخدامها، والخطط الجديدة وصراع التفكير والحيل والمناورات . . ولم يقف الأمر عند حد المشاهدة وتدوين الملاحظات ، بل اشتركت أسلحة الفاشست والشيوعيين ، فكانت التجربة الحية والتدريب العملي الذي تنشده الجيوش ، والذي يعلم الحرب .. فعرفت قيمة الطائرات وأدوارها المختلفة، وظهرت أهمية الدبابات وكيف يحسن استخدامها ، وسجلت الملاحظات الكثيرة عن الأسلحة ومعدات الحرب وأساليب القتال ، وطبقت النظريات الرئيسية وعولجت الموضوعات الكبرى ، فكانت هذه الحرب تجربة نهائية للحرب العالمية الثانية .

وقد استفاد من هذه التجربة بلدان كبيران ، ألمانيا وروسيا . وكان من رأي جريدة « آرمى » الروسية أن المسرح الأسباني هو منشأة عصرية حديثة ، فلن تمثل فيه روايات قديمة ! . وكان هـذا صحيحاً خصوصاً في المرحلة الأخيرة عند ما بدئت خطط التسلل والهجمات

المتجمعة بعمق وسرعة ، مع الاختراق بعمق و إنشاء جزر المقاومة ، ثم إعداد الدفاع الشبكى لإيقاف اختراق القوات المدرعة ، واستخدام قاذفات القنابل وطائرات القتال والتعاون . . ولذلك لم يدهش الخبراء العسكريون الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية ، فقد كانوا يعرفونها من مقدماتها ، قبل أعوام ثلاثة .

أما البلاد الأخرى فلم يشغلها هذا الصراع الداخلى إلا من ناحية نتائجه السياسية ، حتى إن الصحف الحربية الفرنسية لم تتعرض لنواحيه الفنية، ولم تحفل بذكر المعلومات التى تفيد الراغبين فى تتبع القتال بشىء من التعمق ، ومما زاد الطين بلة أن بعض الجرائد الحربية ذكرت معلومات ناقصة أو خاطئة لم يدر حولها تحقيق واستيثاق . . .من ذلك أن كتاباً وضعه بالفرنسية ضابط بحرى يدعى كلوتز.. لا يعتبر فنياً فى الحرب البرية بحكم مهنته واختصاصه وكان قد حضر بداية الحرب فى أسبانيا — أى فى التجارب الأولى عام ١٩٣٦ — وعاد يقول إن المدفعية تحصد الدبابات ، و إن مدفع « أورليكون » (٢٠ مليمتر) هو سيد المعركة ! كتب هذا فتلقاه استراتيجيو الدفاع وفرحوا به ، فقد جاء متفقاً مع وجهة نظرهم !

أما الألمان والروس فقد تعلموا من أسبانيا أن الحرب قد تغيرت ، وفهم الفرنسيون أن الحرب باقية كما كانت . . وهكذا يمكن

القول بأنه منذ أعوام ثلاثة سابقة للحرب العالمية الثانية ، كانت معركة التفكير معروفة النتيجة .

ويكفي أن نمثل بمعركة واحدة من الحرب الأسبانية ، كدليل بين عشرات الأدلة ، على تهيؤ الأفكار فى ناحية للبحث والابتكار ، وامتناعها فى الناحية الأخرى عن أى محاولة . . فمعركة « جوداجارا » كانت معركة هجوم بالدبابات قام به الجنرال الإيطالى برجنزولى ، ولم ينجح هجومه ، وباء بهزيمة ساحقة ، وكان الألمان من ناحية والفرنسيون وحلفاؤهم من ناحية أخرى يشهدون هذا الصراع ، وينتظرون باهتمام نتيجة المعركة ، ففهم الألمان الأخطاء التى حدثت والتى سببت الهزيمة ، فإن الدبابة لم تنهزم ، وفهم الفرنسيون أن الدبابة لا تستحق كل ذلك التمجيد والاكبار .

بدأت هذه المعركة فى الثامن من شهر مارس ١٩٣٧ وظهرت فيها القوات الميكانيكية الإيطالية للمرة الأولى ، واستخدمت مائة وخمسون دبابة ، فكان يمكن أن تحدث عملية هجومية عصرية كاملة النجاح ، وقد أحرز الإيطاليون مفاجأة محلية ، ولكن حدثت أخطاء ! . فقد تقدمت القوات الميكانيكية بدون ملاحظة ضغط الفواصل التى تظهر بسبب السرعة ، وكان الجو غير المناسب من العوامل التى لم يلاحظها القائد الإيطالى ، فسلبته عامل السرعة اللازمة ، بل إن قواته للتى كانت تقرب من ألف عربة حجزت فى الأرض الموحلة ، فأصبحت أهدافاً

طيبة لقاذفات القنابل التى شنت هجوماً قوياً ألقت فيه نحو خمسمائة قنبلة ومائتى ألف رصاصة ، فى الوقت الذى كانت الامدادات تصل للمدافعين بغير انقطاع من جبهة جامارا . وكان من أخطاء الايطاليين قلة عنايتهم بالمعاونة الجوية وعدم احتفاظهم بالاحتياطى لنجدتهم فى الساعة المناسبة ، فلما جاءت هذه الساعة حاقت بهم هزيمة نكراء ، ولم تساعدهم روحهم المعنوية الضعيفة على تحملها ، ففروا تاركين جميع مهماتهم .

هذه المعركة أفسدت الأفكار فى أوربا ، وقلبت الحقائق بالنسبة لقيمة القوات المدرعة ، فكان الحكم أن الدبابة ليست سلاحا رئيسيا ، وأن نجاحها مشكوك فيه . . أما هيئة أركان الحرب الألمانية فكانت محصنة ضد هذا الشعور بسبب العوامل الأخرى فى المعركة ، وبسبب رأى الألمان فى الإيطاليين كجنود ! . . فلم يقولوا « إن الدبابات لا تستطيع » ولكن قالوا « هؤلاء الناس لا يصلحون »

وهكذا نرى أن الحرب العالمية الثانية قد بدأت بين ندين : أحدهما يعيش على أفكار الحرب العظمى ونظرياتها ، والآخر ينظر لتلك الحرب كأنها فترة الاختبار ، كانوا قد أتموا دراستهم وتركوا المدرسة إلى ميدان العمل والنضال الكبير . . .

وكانت القيادة الألمانية عند ما شرعت فى وضع الخطة لغزو فرنسا قد اكتشفت النقط الضعيفة ، وليس هذا فقط فى مواقع الجيش والدفاعات الفرنسية على الحدود ، بل وفى النظريات الحربية الفرنسية

أيضاً ، والواقع أنه كان بين الفرنسيين من فهموا تطورات الحرب الحديثة وحاولوا لَفْتَ النظر إلى ضرورة تعديل الأداة الحربية ، لكن الفرصة لم تعط لهؤلاء ، فحوربوا وأهملوا وأحيطت بهم الريب والشكوك . . ! ولذلك بقيت الأفكار الفرنسية كما كانت فى حرب سنة ١٩١٤ تنتظر هجوما متسعاً على جبهة مديدة يمكن أن توقفه الخنادق والحصون ، فاستعدوا لذلك بعملية وحيدة نسوا بها جميع الصفات الحربية والفنون العسكرية .

وهكذا كانت سقطة القيادة الفرنسية راجعة لسبب واحد : هو أنهم أخطأوا تماما فى تقدير الاحتمالات الفنية وما يطرأ من التحول على العمليات الحربية بسبب الأسلحة والمعدات الجديدة .

لذلك نعجب حينما نسمع عن أسباب الهزائم الماضية ، فنجدها منصبة على موضوع التفوق فى العدد والسلاح . . ولكن ماذا كان يفيد الفرنسيون لو كانوا متفوقين فى العدد والسلاح ما دامت النظرية كلها مستندة إلى حائط أصم ، والاستعدادات جميعها قائمة على فكرة خاطئة ، والقوى المعنوية منهارة ، ولا توجد ثمة قدرة على تحمل إرهاق الحرب الحديثة وويلاتها ؟



تطورات الحرب الحديثة

في سبتمبر عام ١٩٣٩ اجتاح الألمان بولنده ، وفى ابريل عام ١٩٤٠ احتلوا النرويج ، وفى مايو اخترقوا أراضى بلجيكا وفرنسا ووصلوا إلى البحر عند المانش ، وفى يونيو دخلت القوات الألمانية باريس وأتمت قهر فرنسا ، وفى كل هذه العمليات ظهرت صور جديدة للحرب

والذين يذكرون خطاب مسيو رينو رئيس وزراء فرنسا فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٠ لا ينسون قوله : « لقد ووجهت نظرياتنا فى فن إدارة الحرب بنظم وصور جديدة مستحدثة ، ولا تتمثل هذه النظم فى حشد الفرق الميكانيكية المدرعة الثقيلة أوالتعاون بينها و بين الطائرات فحسب، بل تظهر كذلك فى إثارة الفوضى التى تخلق فى المؤخرة بواسطة جنود المظلات — هذه الوسيلة التى سببت إلى حد ما سقوط لاهاى فى هولندا واحتلال قلعة لييج العظيمة فى بلجيكا — ولا داعى لأن أحدثكم عن الأنباء الكاذبة والأوامر المفتعلة التى تعطى بالمسرة للسلطات المدنية ،

وغير ذلك من الأساليب التى أريد بها إضعاف وسائل المقاومة ، وهجر المدن ، و إثارة مشاكل اللاجئين . .

« إننا نواجه هذا كله ، ومن الضرورى أن نفكر فى هذه الصور الجديدة وأن نتخذ بشأنها قرارات حاسمة سريعة »

ومن الصور التى كانت تتمثل لمسيو رينو وهو يعد حديثه موضوع استخدام الألمان لقاذفات القنابل فى مجموعات كبيرة ضد جنود المشاة ، استخداما يجعلها نوعاً من المدفعية الطائرة التى يمكن حشدها بسرعة لإيقاف اختراق العدو أو لتدمير المقاومة العنيفة فى الدفاع أو لقلب التقهقر المنظم إلى فوضى

والأمر الثانى الذى كان يبعث على الجزع هو استخدام الألمان للدبابات الثقيلة التى عجزت المدافع الفرنسية المضادة للدبابات عن إيقافها

والواقع أن أساليب الحرب قد تطورت بسرعة غريبة بسبب استخدام الأسلحة الميكانيكية ، و بسبب تعاون الطائرات والدبابات بدرجة كبيرة ، وقد كان ذلك موضع تنبؤ لغير واحد من المفكرين العسكريين ، ففى عام ١٩٣٥ نشر كتيب وسم بعنوان « الحرب المقاومة » جاء فيه (وسيتطور القتال بالطائرات فى الحرب المقبلة فلن تظل وسيلة من وسائل الاستكشاف ، بل ستكون نوعاً من المدفعية الطائرة . .) وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ تنبأت « الديلى هيرالد » (باحتمال استعمال ألمانيا — نتيجة للتجارب التى نتجت عن العمليات فى أسبانيا —

الدبابات زنة خمسة وعشرين طنا ، والتى تحمل مدافع ميدان فى قربة ٣ بوصات ومدافع من عيار ٣٧ مليمتراً عدا ماسيكون بها من الرشاشات)

كذلك تطور استخدام الأسلحة ، فقد استعمل الألمان مدافع عيار ٨٨ مليمتراً ، ووجد أنهم يستخدمونها ضد الطائرات وضد الدبابات ، ثم أيضاً كمدفعية ميدان خفيفة . . واستخدام مدفع واحد للأغراض الثلاثة هو خير بلا شك وأوفر من استخدام ثلاثة مدافع كل منها لغرض واحد

وليس عسيراً أن يدرك كل فرد مدى تطور الحرب ، ولا نقصد العسكريين وحدهم ، بل إن المدنى — رجلا كان أو سيدة — يمكنه أن يدرك هذا بذات الأسلوب الذى يعرف به مدى التطور فى التجارة أو الانتاج أو وسائل النقل ، فقد جاء وقت كانت كل وسائل النقل تتم براً أو بحراً ، ثم جاء وقت كانت فيه القنالات من أهم سبل نقل البضائع الثقيلة ، وانتقل هذا إلى السكك الحديدية ، ثم السيارات على أن هذا التطور لم يكن تاماً ، فالسكك الحديدية لم تقض على القنالات ، ولم يُقض عليها بسبب السيارات ، لأن جميع هذه الوسائل ما زالت تعمل ، ولكنها تتطور بسرعة من حسن إلى أحسن .

وهكذا الحرب ، فانها تتطور بسرعة ، وقد سار هذا أحياناً فى خط مواز للتطور فى النقل والصناعة ، فجاء وقت كانت الجيوش تنتقل على الدواب ثم على العجلات ، وتبع ذلك استخدام السكك الحديدية

فى النقل والتموين ، ثم أضحينا فاذا نحن فى « عصر البترول » فاستخدمت العربات وعبدت الطرق التى أصبحت تشق بقاع العالم كلها وتربط بينها ، بل ونظمت طرق عسكرية خاصة لتحركات الجيوش .

والخطر كل الخطر من عدم سرعة إدراك هذا التطور وتقدير آثاره ، ففى مايو سنة ١٩٤٠ قرر بعض القادة الفرنسيين أن الألمان لا يستطيعون أن يوجهوا ضربتهم الأساسية عن طريق الأردن ، لأن تلك المنطقة قليلة الخطوط الحديدية ! ثم رأينا أن الألمان قد وجهوا ضربتهم الحاسمة عن طريق الأردن .. وقد فوجىء الفرنسيون وكسر الخط الفرنسى عند سيدان وعلى طول الميز لأسباب كثيرة ، ولكن أهمها هو أن القيادة الفرنسية لم تدرك أن «حرب البترول» قد خلفت «حرب السكك الحديدية » .

والواقع أن صور الحرب تتغير على طوال عصور التاريخ ، ليس فقط بسبب تغير الوسائل المدنية فى الإنتاج الصناعى والنقل، بل و بسبب التقدم فى صناعة المعادن والبحوث العلمية ، فالأسلحة والدروع قد تطورت تبعاً للتجارب والأبحاث التى تدور حول صناعة المعادن ، وفنَّا البناء وتصريف المياه قد أصبحا المحور الأساسى لفن الاستحكامات ، وهكذا الكيمياء بما أدخلته فى صناعة المفرقعات ، والهندسة الميكانيكية، بما أنتجته بحوثها من تحسين فى صناعة الطائرات والسيارات . كل هذه مجتمعة قد سببت هذا التطور الذى نشهده اليوم فى ساحات القتال .

وفى العصور الحديثة أثر التطور الصناعى فى طابع الأسلحة ، فالبندقية التى تطلق رصاصة ثم يعاد تعميرها أصبحت من مخلفات الماضى ! ولـكن الرشاش الذى يستمر فى إطلاق النيران ما دامت الضغطة مستمرة هو سلاح هذا العصر ... عصر الميكانيكا الآلية .

والآلات التى أعدت للانتاج الـكثير كان لها أيضاً أبعد الأثر فى هذا التطور ، فهى تستطيع أن تخرج إنتاجاً مستمراً غير محدود ما دامت تجد ما يقذف بين فكيها من المواد الخام ، إن آلات القرن العشرين تستطيع أن تنتج الأدوات لإمداد جيوش من ملايين الجنود ، وتقدم الذخائر التى تحتاجها أكبر جموع عسكرية عرفت فى الوجود .

وقد أصبح العمل بسيطاً سهلا فى هذه المصانع ، فلا يحتاج الأمر إلى إخصائيين ، بل بات من الممكن أن تتولى إدارتها السيدات ، خصوصاً فى وقت الحرب ، وبذلك أمكن إطلاق سراح أكبر عدد ممكن من الرجال فى الأمة للرحيل إلى ساحات القتال .

ومن الوجوه التى يمكن منها إدراك مدى تطورات الحرب ، ما نلمسه بصدد استعمال الخنادق ، ففى العهود الحربية القديمة ، حتى أيام نابليون لم يكن الجنود يعرفون الخنـادق والحفر ، وربما كانوا يقفون وراء الآكام الصغيرة وحافات الطرق المحفورة لإطلاق النار مع تعرض بعض أجزاء الجسم ، ولـكننا فى هذا العصر الأخير نجد الجنود ينشدون الحفر ولا يبارحون الخنادق إلا نادراً ، مع أن حرب الخنادق

فى الواقع ليست بالصورة المحببة للجنود ، ولـكنهم يرغمون عليها إرغاماً بسبب التطور فى التسليح وأدوات التدمير .

وقد حدث فى الحرب العظمى بعد ثلاثة أشهر من قيامها أن أصبح النضال فى خطوط مستمرة من الخنـادق على طول الجبهة من سويسرا إلى البحر ، على أن هذه الخطوط بالرغم من اختراقها فى نقط كثيرة على طوال أعوام الحرب الأربعة ، كان يعاد إنشاؤها ثانية من جديد بعد أيام من الاختراق .

كذلك حدث فى أسبانيا أن انقلب القتال بعد الأشهر الستة الأولى إلى حرب خنادق ، وأنشىء خط دفاعى من البرينيز إلى قرب جبل طارق . ولم يكن هذا الخط مستمراً ، ولـكن الثغرات كانت مليئة بالمزارع المحصنة والقرى والنقط القوية ، ولم تكن القوات الأسبانية التى تحتل هذا الخط أكبر عدداً من القوات التى وضعها نابليون فى شبه جزيرة أيبريا قبل هذا بمائة عام ، ولـكن جنود نابليون كانوا لا يعرفون الخنادق . . فلماذا أعدت الحفر وأنشئت خطوط الخنادق بين عامى ٣٦ — ٣٩ ؟ ولماذا آثرت الجيوش الرئيسية لبريطانيا وفرنسا فى بدء الحرب الحالية الاختفاء وراء الحصون والقلاع ؟

إن الجموع الـكبيرة التى تحشد فى الحروب الحديثة جعلت الحرب الموضعية أمراً ممكناً ، وذلك بسبب الـكميات الـكبيرة من الرصاص والقنابل ، والنيران إجمالا التى يمكن لوحدة صغيرة أن تطلقها

على مواجهة واسعة فتبيد من فيها . . وقد تطورت قوة النيران حتى إن أى قوة غير مدرعة تقابل نيران قوة أخرى مماثلة تضطر للوقوف ، ولذلك بقيت الجيوش المتحاربة حبيسة خطين من الخنادق من أكتوبر سنة ١٩١٤ إلى مارس سنة ١٩١٧ ، وكان معنى الهجوم فقدان ضعف أو ثلاثة أضعاف ما يفقده العدو دون الحصول على نتيجة حاسمة ، ولكن فى السنة التى أعقبت التاريخ الأخير تغير الوقف ، لأن المسألة لم تعد مسألة نيران وضحايا ، بل تغيرت نظرية الدفاع الممتد إلى دفاع بعمق ، وانقلب الوضع إلى حرب حركة نتيجة عاملين : استعمال الحلفاء للدبابات ، وابتداع نظرية الهجوم بالاختراق .

وقد حدث تطور كبير فى تنظيم الجيوش ، ففى الأزمنة الغابرة وإلى عهد فردريك الأكبر كانت الوحدة التكتيكية هى كل أفراد المشاة الموجودين فى الجيش ، وكان فردريك وحده هو الذى يفكر ، وكان على كل الحشد أن يتبعه و ينفذ أوامره ، فكل المشاة يتقدمون معاً فى خط واحد مستقيم ، ويلتزمون عملا متشابها حتى الخطوة ، وفى أيام نابليون كانت الوحدة التكتيكية هى الفيلق أو الفرقة أو اللواء ، وفى النادر جداً كانت الكتيبة تقوم بعمليات مستقلة . . ففى ووترلو أمر نابليون فى آخر لحظة بهجوم فيلق الحرس كله ، فكان الجنود يتقدمون معاً و يفعلون فى وقت واحد شيئاً واحداً ، فلما فكر ولنجتون فى الهجوم المضاد حرك لواء فرسان فيفيان ولواء مشاة آدام بأكملهما ، وتحركت جميع هذه القوات

متراصة كالبنيان ، وحتى كتائب المشاة ولواءات الفرسان كانت تهاجم أو تتراجع بنداء رجل واحد .

وفى عام ١٨٧٠ بدا أن سير الجنود فى جموع كبيرة متراصة كان عملا ينطوى على خطورة عظيمة ، ولهذا تغيرت الوحدة التكتيكة إلى اللواء والكتيبة ثم السرية . وبقى هذا الوضع حتى بداية الحرب العالمية الأولى ، وقد جاء فى تقرير البريجادير جنرال أيدموندز عن هجوم الفرقة ٣٤ فى السوم « وفى ساعة الصفر نهض مشاة الفرقة كلهم عدا مقدمة القول الثانى كرجل واحد ، وفى فترة عشر دقائق كان ثمانون فى المائة من مجموع الفرقة قد أسقطوا برصاصات العدو ومدفعيته . . »

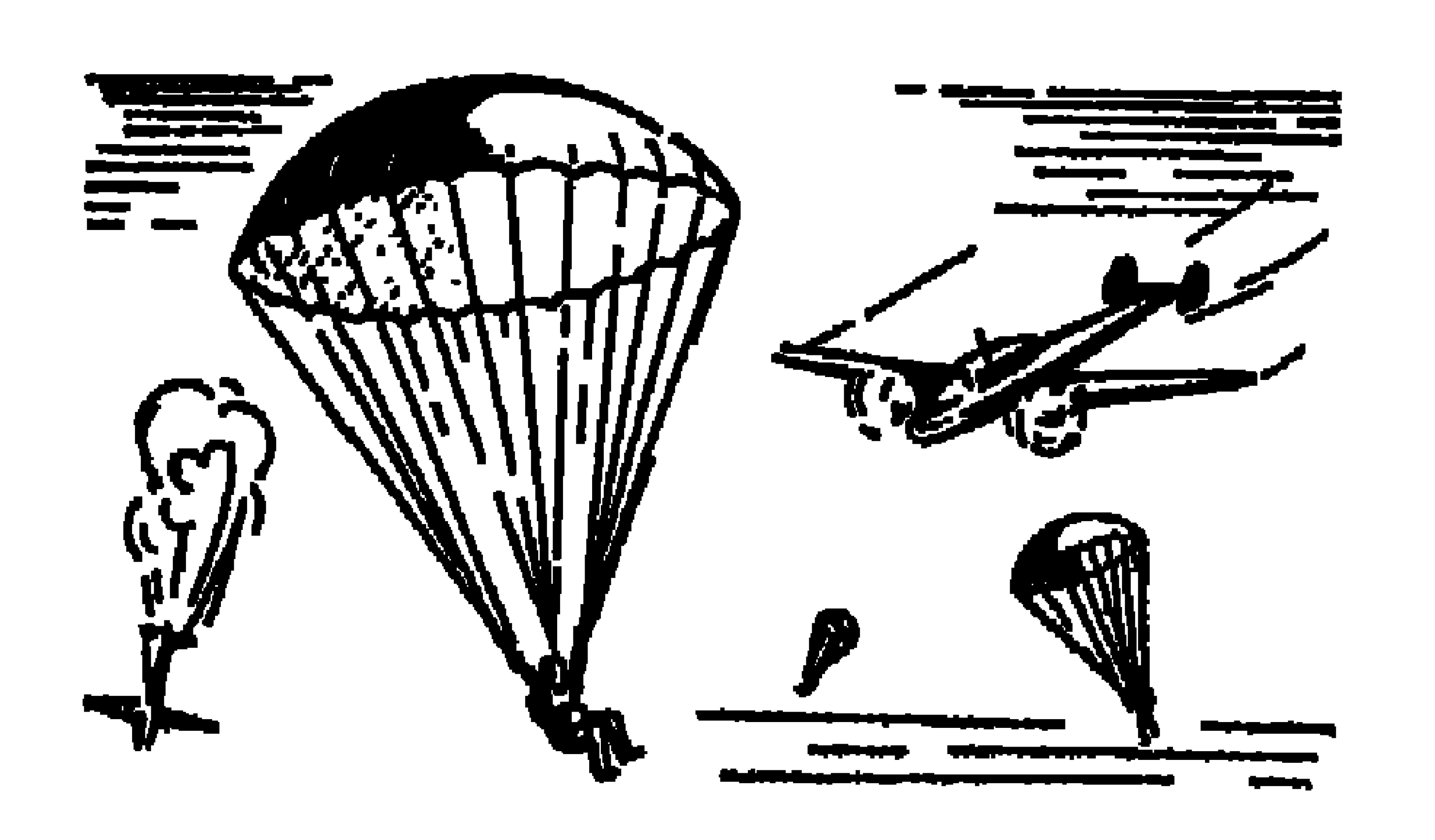
ومن أجل هذا أرغم العسكريون على تغيير النظرية القديمة والتفكير فى تجزئة القيادة و إعادة النظر فى تنظيم الجيوش ، ووصلت الأبحاث والتجارب إلى أن جعلت الجماعة التى لا تزيد عن اثنى عشر جنديا هى الوحدة التكتيكية التى تعمل تحت إمرة أنباشى ، وأصبح هذا القائد الصغير منوطاً بتوجيه جماعته مسئولا عن عملياتها ، فتبعاً لمدى سرعة خاطره وقدرته على الابتكار لمواجهة المواقف المختلفة يتوقف النجاح أو الإخفاق للعملية جميعها .

ومن ذلك الوقت بدأ الاهتمام بتنشئة القادة الأصاغر من ضباط الصف حتى أصبحوا « السلسلة الفقرية للجيوش » .

وكان طبيعياً أن يدخل هذا التطور فى أساليب الحرب ونظم

العمليات المختلفة ، فلم تظل الحرب قتالا بالمواجهة ، بل ظهرت نظريات جديدة كالالتفاف حول أجناب العدو ، وعمليات الاختراق والتسلل ، وهذه الأخيرة تقوم على أساس بحث الجماعات عن نقط الضعف فى خطوط العدو تحت ستار الظلام أوستار من النيران ، فتنفذ منها إلى نقط المدفعية والذخيرة ومحلات القيادة وغيرها من المراكز الحيوية ، أو تسعى للاستيلاء على مناطق العبور ورءوس الكبارى ومفاتيح المواقع، على أن تتبعها من نفس الثغرات أفواج متتالية لتؤيد هذا الغزو وتحقق أغراض التسلل . . وفى مثل هذه المعارك يكون قادة الجماعات هم المسئولين وحدهم عن سير العمليات التى يقومون بها ، وقد تكون لديهم أغراض يتطلب الكفاح لأجلها ساعات طويلة . ففى الحرب الأهلية الاسبانية وجد مع أحد ضباط الصف أثناء معركة ايبرو أوامر بالعمل لمدة يومين .

ونظرية الحرب الخاطفة تقوم على هذا الأساس . فالوحدات الصغرى تعطى أغراضاً بعيدة ولمسافات طويلة ، على أن يعزز هذه الوحدات سلاحان ماضيان ، الدبابات وقاذفات القنابل . وأصبحت هذه النظرية المستحدثة للهجوم تتطلب تنظيما جديداً وتسليحاً معيناً ، وروحا معنوية قوية لمواجهة كل أخطار الحرب الحديثة



حرب العسكريين والمدنيين

هذه حرب جامعة تملأ لجاج البر ومجاج البحر وطباق الجو ، والقتال على أشده فى داخل المدن وبين الشوارع والبنايات . .
فأى فرق بين الجندى المسلح والمدنى الأعزل ؟ . . إن مصير هذه الحرب هو بما يبديه الشعب من استعداد واحتمال ، وإصرار على مواصلة القتال . .

لا جدل فى أن الجنس البشرى عامة يعتبر الحرب أسوأ الشرور ومن أجل هذا تحاول الأمم قاطبة أن توقف هذه المأساة الانسانية الكبرى بكل ما يسعها من أساليب السياسة والمساعى السلمية ، ولكن يجىء الوقت الذى تعجز فيه السياسة وتبخس قيمة المعاهدات ، وتعود البشرية برغمها إلى التطاحن وإهدار الدماء . . وكلما تقدم الزمن تزايدت الشرور واشتدت المآسى ، حتى انتهى بها هذا التطور إلى أن تمسى فى أيامنا هذه حرباً أممية طاحنة لا حرب جيوش وحسب ، فالشعب بكليته يواجه القتال الفاجع ، والمواطنون جميعاً ، سيدات ورجالاً وأطفالاً

تصيبهم الحرب بأهوالها وآلامها .. فهذه الصورة الجديدة للحرب تتطلب تعبئة قوى الأمة واستعداد المدنيين لحماية أنفسهم ورد الشر عن ديارهم والمساهمة في هذا الصراع الذى لم يعودوا بمنجاة من شروره وويلاته .

لقد انتهت الحرب الأممية من قتال موضعى فى ميادين خاصة إلى مسرح عام يمتد لمئات الأميال فى الجبهة وفى داخل المدن وعلى الطرقات وداخل المصانع ، ولم تعد هناك منطقة حرام ، أو مدنيون لا ذنب لهم ولا جريرة ، وأمست صور تطبيق أصول الحرب المسطورة التى وضعت فى الربع الأول من القرن العشرين شيئاً قديماً فقد قيمته العملية ، لأن المرأة التى تعمل فى مصانع الذخيرة والفتاة التى تنسج البارشوت ، كالجندى المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، والذى يعمل فى الانتاج ، والذى يخدم وطنه فيما يمت للحرب بصلة ، كالذى يعمل فى خط القتال سواء بسواء ، كلاهما جندى يتعرض للويلات ويساهم فى النصر وتقرير المصير .

فكل فرد قادر على العمل يجب أن يدرب وأن يفهم الحرب حتى يتجه الجميع إلى الواجب ، إلى العمل الشاق ، كل إلى نصيبه .. لإكمال الجيوش وإنتاج الذخائر وإمداد المحاربين ، والمحافظة على أرض الوطن ، وفى هذه الفترة الخطيرة من حياة الأوطان يجب أن نتشدد فى تحقيق واجباتنا وأن نتحامل على أنفسنا متحملين كل شىء . . إلى الحد الأقصى ! وبهذه التدابير وهذا الروح تكون الأمة قوة هائلة قادرة على

تحمل الكوارث ومجابهة الأخطار باطمئنان وثقة فى النصر النهائى .

ان الحرب لم تعد بعيدة عن المدنيين ، سواء كانوا يعيشون عند السواحل أو فى أقصى الجنوب ، وسواء كانوا يعملون فى المصانع أو وظائف الحكومة ، أو فى بيوتهم ومتاجرهم ، فقد يستيقظ الفرد على قصف المدافع ورعود القنابل ثم تهتز الأرض وتتساقط الأبنية لأن الطائرات لا تعرف حرمة ولا تفرق بين المسلحين والعزل ولكن غرضها القضاء على كل شىء يملكه العدو أو يبقيه على إصراره ، وليست الطائرات فقط هى مصدر الخطر على المدنيين ، فقد ينتقل القتال فى شوارع المدن وطرقاتها من مئات الأميال بسرعة لأن جنود المظلات وأفراد الطابور الخامس ينشئون ساحات القتال هنا وهناك فى ساعات لا فى أيام، لحرب اليوم ليست هى التى عرفها العالم قبل ربع قرن ، ومن أجل هذا يعرض المدنيون إلى الأخطار الماحقة والكوارث الجلى مما يقتضى إعدادهم للواجبات الجديدة . فكل مواطن مسؤول عن العمل ، وعليه أن يكون نافعاً وأن يساهم بنصيب إيجابى فى هذا الصراع الذى تضيع فيه الشعوب بالتهاون لا بالهزيمة العسكرية ، و بسبب الخوف والاستسلام لا بتأثير العمليات الحربية و إخفاق الجيوش .

والواقع أنه لا يطلب من الفرد المدنى أن يكون جندياً كأولئك الذين فى الجيش العامل ، و إنما يجب أن يثقف المدنيون عسكريا وأن تكون لدى الفرد فكرة عما يحتمل أن يقوم به فى هذا الكفاح ، ومن

الضرورى أن يبدأ هذا التدريب بمعرفة الوسيلة الصحيحة للاختفاء من الطائرات ومن جنود العدو على حد سواء ، ثم يعرف كيفية استخدام الأسلحة التى يمكن الحصول عليها ، ويدرك أساليب جنود المظلات حتى يمكن التنبه لهم والقضاء على محاولاتهم ، كذلك نظم الحراسة للمنشآت الهامة حتى يمكن الاستغناء عن القوات العسكرية لحمايتها ، ثم التدرب على الوسائل الصحيحة للمساهمة فى الحرب إذا وصلت إلى داخلية البلاد بمعرفة التدابير الدفاعية وأساليب المقاومة وطرائق دفع العدو وتشتيته ، ومساعدة الجيش فى إنقاذ أرض الوطن .

فإذا انتهى المدنى من معرفة هذا كان فى استطاعته أن يؤدى واجبه كاملا ، فإذا صلحت مجموعة الأفراد كانت البلاد مستعدة للقيام بالدور الذى تفرضه الحرب الحديثة ، من تحمل وصمود وشدة ، فإذا خاضت الأمة الحرب عبأت لها جميع القوى ، ولكن هذا لا يعنى تسليح كل فرد من أفراد الشعب وجعل الجميع جنوداً ، بل يعنى تدريب عدد كبير من المواطنين على الشؤون العسكرية على أن يظلوا فى حياتهم المدنية يؤدون أعمالهم و يقومون بتكاليف وظائفهم سواء أ كانت حكومية أم أهلية حتى يحتاجهم الجيش لسد النقص فى قواته الأمامية ، أو للأعمال الوقائية والدفاعية كحراسة المنشآت ومقاومة جنود المظلات وأمثالها .

وتلقى فكرة تجنيد الشعب معارضة فى بعض الدوائر بحجة أن ازدياد العدد لا يفيد شيئاً أمام معدات الحرب الحديثة ، ولكن

ما حدث فى روسيا يعد كافياً للرد على هذا الاعتراض ، كما يقولون إن
الجيش الذى يجمع من المتطوعين لا فائدة منه ، فوق ما ينتج من تنافر
بجمع نوعين من المجندين فى جيش واحد كل له صفات وأنظمة خاصة ،
و يسوقون لهذا ما حدث فى الجيش الايطالى بين القوات العاملة وشباب
الفاشست ذوى الأقمصة السوداء ، على أن ما حدث فى الجيوش الايطالية
لا يمكن اعتباره حجة ، والذين يعارضون هذه الفكرة يعارضون كل
التجارب الماضية ، هذه التجارب التى أثبتها الكفاح للحرية فى نواح
كثيرة من العالم .. ولقد حدث فى ظروف كثيرة أن نهوض الشعب
للكفاح كان يؤدى إلى هزيمة أكبر الجيوش ، فالجمهورية الهولندية
نشأت ووصلت إلى القوة بكفاح الشعب والمتطوعين ، و إيطاليا تحررت
من أيدى النمسا بفضل جموع المقاتلين المتطوعين والمدنيين الذين كانوا
ينظمون تحت قيادة غريبالدى .

وعند ما حكم « نابليون » أوربا كلها ، وأغار على اسبانيا وهزم
جيوشها لم تسلم البلاد إلى الفاتح الكبير ، بل قام الشعب وأعلن الكفاح
وجند المدنيون للقتال حتى أصبح كل اسبانى مقاتلا من محاربى
العصابات .. فدمر الشعب قوى نابليون ومنعه من الاستقرار فى اسبانيا ،
فبدأت الدائرة تدور حوله حتى انتهى به الأمر إلى الكوارث النهائية ..
وفى تلك الأيام ذاتها كانت بريطانيا معرضة للغزو الذى كان يعده نابليون
و إزاء هذا التهديد استدعى (بت) كل رجل قادر على حمل السلاح

للتجنيد ، وأوكل أمر الدفاع إلى السير جون مور ، الرجل الذى بدل من تعليم الجيش البريطانى وتسبب فى إعداد القوات التى قادها ولنجتون فى «وترلو» وفى هذا يقول: « ولا يضعف من قوة العدو وقدرته أكثر من رؤيته آماله كلها وقد انقلبت ضده ، إن العدو يعرف قوة الجيش العامل ولكنه لا يستطيع قهر البلاد إذا وجد الشعب كله مستعداً . . » وفى الحرب الأهلية الاسبانية كانت بين القوات كتيبة من المدنيين الأجانب الذين كانوا يقيمون فى مدريد ، كان منهم الفتيان والشيوخ والصبيان ، وكان بين هؤلاء من لم يدربوا أكثر من عشرة أيام وأكثر مدة لأحدهم كانت ستة أسابيع ، وكان تعداد الكتيبة خمسمائة مقاتل يستخدمون كلهم الرشاشات ، فاستطاعوا إيقاف ألفين من مشاة فرنكو بمدفعيتهم ودباباتهم . . ثم قامت الكتيبة بهجوم جارف بفضل الروح المعنوية التى تلازم جيش الشعب .

وهناك مثل عصرى نلمحه فى كفاح الصين ضد النفوذ اليابانى، فالقوات الصينية تشتمل على الجيش العامل وقوات المتطوعين من الشعب ولكنها أضعف فى قوة النيران وفى الاستعداد من الجيش اليابانى ، فالذى له الفضل فى استمرار كفاح الصين المجيد هو الشعب الذى لا ينقطع عن المقاومة ولا يقبل التسليم ولا يمتنع عن التضحية . . أما الحرب فى روسيا فهى أروع مثل لما يستطيعه الشعب مهما حدث للجيش ، فكان القتال يدور فى المدن والقرى و يتنقل بين الشوارع والطرقات ، وهذا هو ما كان

يتنبأ به الجنرال لودندورف فى كتابه « الأمة فى الحرب » عند ما قال « إن قيام الشعب للحرب على طول أرض المملكة يمنع المنتصر من الحصول على ثمار النصر كاملة . . »

يجب أن يفهم الشعب هذه الحقائق وأن يعد لأخذ دوره فى الصراع حتى لا تضيع المملكة ، وأولئك الذين كانوا يحكمون فرنسا قبيل الحرب لم يكشفوا للشعب عن حقيقة الموقف وخافوا مواجهته بالأمر الواقع ، لقد حدثوه عن تحصينات ماجينو ، ولكنهم لم يقولوا إن هذه التحصينات ليست بذات القوة حتى المانش، وكانوا يقولون له إن الجيش البرى تعداده خمسة ملايين من الجنود فى الوقت الذى كانت فرنسا لا تملك فيه نصف هذا العدد ، ومنعت الحكومات توجيه أى نقد للحالة الحربية وأقصت الذين لهم أن يسألوا أو يستجوبوا . . ولو صورح الشعب بحقيقة الموقف لبعثت كل أم وحيدها وخلعت كل فرنسية معطفها وجمعت الملايين للدفاع الوطنى ، فالشعب لا تضيره أى تضحية ليضع سداً من النار والحديد لسلامة البلاد .

لم تعط الفرصة لشعب فرنسا أن يعمل ولذلك أطبقت عليه الهزيمة وضاعت فرنسا فى معركة واحدة .

إن مسألة إعداد الشعب تتطلب مجهودا متنوعا ، ولكنها ليست بالمسألة التى يصعب تفهمها أو يتعذر تحقيقها فى أسابيع قليلة ، فقد درب المدنيون الذين تطوعوا للدفاع عن مدريد أثناء الحرب الأهلية

الاسبانية لمدة ستة أسابيع ، وكان المتطوعون يفدون فى خلال العمليات، فكثير منهم لم يُدرب أكثر منهم عشرة أيام واشترك ببسالة نافعة فى صراع دموى رهيب . . والذى فعله هؤلاء يمكن لكل فرد أن يقوم بمثله ناهضاً بنصيبه كاملا للدفاع عن موطنه ومستقبله .

ويجب أن يذكر كل فرد بأنه منذ ألفى عام حارب الاغريق امبراطورية مسرفة فى الطغيان فقاتلوا حتى كسر كل سيف وكل حربة ، ولكنهم بقوا يقاتلون بما بقى فى الحراب بعد كسرها والسيوف بعد تحطيمها وكان هؤلاء الابطال هم باعثى المدنية الحديثة فى العالم ، هذه المدنية التى قامت على فكرة الحرية للفرد والجماعة .

وفى تاريخ العالم عشرات الأقاصيص عن الرجال الأحرار الذين سلحوا أنفسهم وتدربوا على الجندية وتقدموا إلى الميدان يحاربون المغتصبين وأحرزوا النصر والفخار ، وما حازه هؤلاء يستطيع كل فرد أن يحوزه ما دامت له ذات الروح العالية الطامحة إلى المجد والشرف الوطنى .

وقد بدت أهمية تدريب المدنيين وتسليحهم فى هذه الحرب الأخيرة منذ أول لحظة عندما اجتاحت القوات الألمانية حدود بولندا ، فقد كان بعض البولنديين الألمان والمؤازرين للأعداء يعملون وراء خطوط القوات البولندية ، وكانوا ينقلون للألمان ترتيبات الدفاع ، كما كانوا يصدرون الأوامر المختلقة بالتقهقر ، والأنباء الكاذبة عن تقدم الألمان ، وكانوا يعملون على إثارة النزع والقلاقل بين المدنيين ، على أن دول غرب

أوروبا لم تكشف عن هـذا الخطر قبل أن يدور الألمان حول الحائط الغربي لاجتياح هولندا و بلجيكا ، ثم بدت خطورة هؤلاء العملاء فيما حدث أثناء غزو النرويج .

ولذلك أصبح ضروريا أن يدرب المدنيون وأن تنظم الأمـة عسكريا لمواجهة هذه الصور الجديدة للحرب ، وهذه مسئولية الدولة كما هي مسئولية الأفراد ، ومن الضروري أن يتفهم كل فرد التعاليم الأولى في الوقاية والدفاع والمقاومة حتى يكون نافعا عند ما تأزف ساعة الأخطار

كل قرية أو كل بناء يمكن أن تعمل منه قلعة حصينة ضد جنود المظلات وأفراد الطابور الخامس ، وحتى القوات النظامية عند تسللها من بين خطوط التحصينات الخارجية .

لقد اجتيحت بولندا و بلجيكا وفرنسا لأن الأهلين في كل مكان ــ أولئك الذين هم قوام الدفاع المدني ــ كانوا يفرون أمام الغزاة ، مع أنه لو وقف أهل كل قرية ساعات قليلة يعطلون قولات العدو إلى غاية ما يمكن لما استطاع الألمان أن يصلوا إلى باريس قبل شهرين من تخطيهم لحدود فرنسا ، مهما لازمهم النجاح .

و يمكن أن يجتمع الرجال الذين يعملون في أي مرفق حيوي أو شركة أو مصنع أو معهد و يدربون على وسائل الدفاع والوقاية والحراسة والمقاومة في هذا المكان الذي يستمدون منه حياتهم ، فينشئون منه حصنا و يشكلون من أنفسهم قوة عسكرية ، فاذا اخترق العدو خطوط

الدفاع إلى قلب البلاد قوبل بكفاح دموى عنيف فى كل شارع وفى كل بناء ، ومنى بالخسائر الجسيمة كلما تقدم ماراً بقرية أو مدينة ، كما حدث فى القرى والمدن الروسية التى كانت شوارعها وطرقاتها ميادين حرب مروعة ، أوقفت الهزيمة وقلبت الأوضاع وظفرت بالتمجيد الذى سيخلد فى التاريخ .

ويستطيع جيش المدنيين أن يسد الطرق لاعاقة الدراجات الميكانيكية والعربات المدرعة و تعطيل الدبابات ، وأن يقيم الحراسة لمنع إتلاف هذه السدادات وحمايتها بالنيران ، ومن أمثلة هذه الموانع إقامة حوائط من أكياس الرمل وسياجات من الأسلاك الشائكة وعراقيل من الأشجار ، ومجموعات من الزجاج المهشم فى طريق العربات . . ويمكن استخدام المبانى للدفاع بفتح المزاغل (الفتحات الصغيرة) فى الجدران على طرق التقدم واستخدامها لاطلاق النيران ، على أن تكون هذه المزاغل مختفية عن نظر العدو ، كما يجب إغلاق الأبواب والنوافذ ووضع أكياس الرمل خلفها حتى لا تنفذ منها قنابل اليد التى تستخدم فى حرب الشوارع .

وتوضع العراقيل فى المناطق الفسيحة التى تصلح كأراضى للهبوط فى المدن والقرى ، وكل مكان فى داخلية البلاد يمكن للطائرة أن تهبط فيه يجب أن يوضع تحت الحراسة وأن تتخذ التدابير لمنع العدو من استخدامه ومن وسائل ذلك :

(١) عمل نطاقات من الأسلاك الشائكة بارتفاع أربع أقدام .

(٢) توضع فى الأراضى الزراعية عدة أعمدة ضخمة بفواصل مناسبة (٥٠ قدماً) .

(٣) الأراضى التى لا تزرع تحفر بها خنادق عمق ثلاث أقدام وباتساع عشر أقدام . هذه الخنادق تسبب كسر عجلات الطائرات وانقلابها .

و بين التدابير التى تتخذ ضد جنود المظلات وجنود الطائرات أن تجمع العربات التى لا حاجة إليها وتنزع منها الأجزاء الهامة حتى تصبح هيكلا عديم النفع وتوزع فى الأراضى الصالحة للهبوط ، كذلك محطات البنزين فى تقاطع الطرق يجب حراستها والعمل على اتلاف ما فيها من بترول إذا نجح العدو فى الهبوط أو فى تقـدم القوات الميكانيكية . وقد حدث فى بولندا وفرنسا أن دبابات الألمان كانت تمون بالبنزين من المحطات التى تركت طليقة عندما فر المدنيون أمام القوات الزاحفة . . وكان فى استطاعتهم أن يتلفوا البنزين بالقاء كميات من السكر أو الزيت وغيرها من الطرق المعروفة ولكن شيئاً من هذا لم يفعل لأن أحداً لم يفكر فيه حتى انتهت معركة فرنسا .

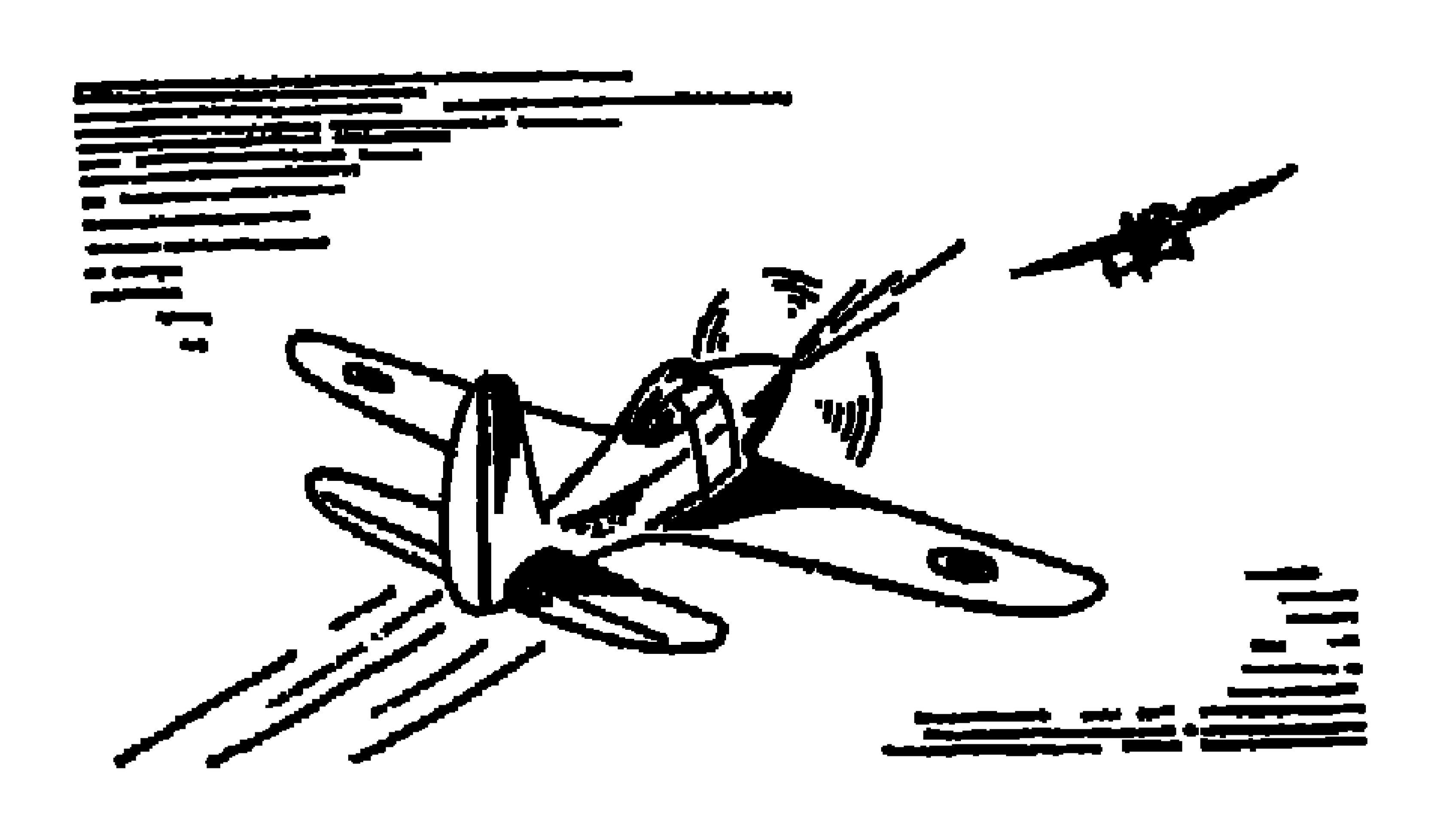
وهناك مسألة أخرى ذات أهمية كبرى يجب أن تكون من بين واجبات المدنيين ، وهى حراسة الكبارى وقناطر العبور والأجزاء الضيقة والقليلة الغور فى الأنهار وفروعها ، وقد يكون ذلك من واجبات الجيش و بين التدابير العسكرية ، ولكن الدولة لا يمكن أن تحرس بقوات جيشها

العامل كل الكبارى التى تمر على كل نهر وكل ترعة ، ولا تستطيع أن توزع القوات التى تكفى لحراسة جميع المنشآت الحيوية ، فهذه يجب أن يحرسها الأهلون الذين تقع هذه الكبارى والمرافق على مقربة من دورهم ومصانعهم . . فلا أحد يعلم أين ينزل العدو و يوجه ضربته ، فيجب أن توضع الترتيبات لكل احتمال ، فاذا هبط جنود المظلات فى مكان ما يجب على المدنيين أن يسرعوا بالتبليغ والمقاومة العاجلة وأن تكون قوات الحراسة مستعدة ليس فقط لمنع العبور ولكن أيضا لتدمير الكبارى فى الساعة اللائمة . . إن المعابر فى هولندا و بلجيكا وفرنسا لم تدمر بسبب إغفال هذه الواجبات فاستطاعت القوات الميكانيكية أن تسرع فى شق طريقها وسط جموع المدنيين الفارين من النار والحديد .

ومن الوسائل التى يجدر بالمدنيين النهوض بها لإعاقة التقدم و إيقاف الزحف ، التدرب على عمل الحفر ، والواقع أن الحفر من أهم الأسلحة حتى فى هذه الحرب الحديثة ، ولهذا يجب أن يعرف كل فرد كيف يعد حفرة تتسع له للوقاية من نيران وقنابل الطائرات ، كذلك إنشاء الخنادق والحفر فى طرق التقدم ، التى يحتمل أن يستخدمها العدو فى زحفه فتعترض عرباته ودباباته وتؤخر سرعة تقدمه ، وكل تأخير ينطوى على نفع كبير .

هذا و يجب نشر التعاليم اللازمة للمدنيين ، وغمر القرى والشوارع والأندية والمدارس والمصانع والمركبات وغيرها بصور الطائرات والدبابات

والجنود التى تميز العدو ، وأن تنشر أوامر الوقاية والنصائح الواجب تلقينها للمدنيين وأن يعتنى بالمؤلفات الحربيـة والأذاعات والأشرطة السينمائية والمسرحيات لتوجيه الجماهير إلى ما يحيط بها فى هذا الصراع العالمى من أخطار وما تتعرض له من كوارث وأهوال ، وما يمكن لهم أن يؤدوه من أعمال وما عليهم من واجبات حتى يساهم الجميع فى المعركة التى تقرر مصير الجميع .



كيف تواجه الحرب الجوية

الذين تركوا أنفسهم نهبا للفزع والخوف
أضروا بقضية وطنهم فى وقت محنته الكبرى
ولذلك يجب على كل فرد أن يعرف ما يحتمل
أن يتعرض له ، وما يجب أن يعمله . .

طالعتنا هذه الحرب بصور جديدة لم تكن تدور بخلد الكثيرين ولكن غير واحد من كبار العسكريين كان يتوقع هذا التطور الذى لحق بالحرب ، ومن التنبؤات التى تحققت ما ذكره جنديان كبيران هما الماريشال فوش بطل فرنسا ، والجنرال لودندورف القائد البروسى النابه ، وقد كشفا فى أحاديث لكل منهما عن مدى ما يمكن أن تصل إليه الأسلحة الحديثة تبعاً لسنة التطور وبما يحتمل من أساليب استخدامها فى الحروب القادمة .

والغريب أن « فوش ولودندورف » قد اتفقا فى أن الحرب

العالمية الثانية ستصحب بهجمات جوية عنيفة تقوم بها حشود كبرى من قاذفات القنابل ، وتكون هذه الهجمات مفاجأة بغير إنذار كعامل أولى يقصد به الحصول على نتائج حاسمة سريعة قبل أن تقابل بالمقاومة الفعالة ، وأن تنزل هذه القاذفات ضرباتها مفاجأة فتدمر المرافق والمنشآت الحيوية وعقد المواصلات ودور الصناعة فتدك بذلك تدابير الإنتاج والتعبئة فتضيع على العدو فرصة لا تعوض ربما تكون هى النهائية فى تقرير مصيره

وهذه الحرب التى تنبأ بها القائدان الكبيران جاءت بعد ربع قرن من الحرب التى قادا فيها جيوشا عظمى ، ولكن لم تأت فى نفس الصورة القديمة بل جاءت حربا أممية جامعة يتعرض لها كل فرد ويشترك فيها الجميع ، لا فرق بين العسكريين والمدنيين ، بل قد يكون نصيب الآخرين أكبر عبئاً وأكثر إيلاما ، فالجيوش اليوم تنتصر أو تقهر تبعاً لاستعداد الشعب ومدى تحمله لأعباء الحرب

والواقع أن الحديث عن صلة الحرب الحديثة بالمدنيين وتأثيرهم فيها تتطلب إفاضة تضيق عنها هذه الصفحات ، ولكنه عند الحديث عن الحروب الجوية — وهى أسوأ صور الحرب الحديثة على المدنيين — يجب أن ندير الحديث بعمق وإفاضة حتى يتمكن الجميع من إدراك ما تنطوى عليه هذه الصورة من خطر ماحق ، وما يجب أن يتخذ من الإجراءات لمواجهته .

والحرب أصلاً لم تنشب بفكرة الإبادة وحدها سواء للعسكريين أو المدنيين ، ولكن الغرض من الحرب هو التغلب على المقاومة والفوز بتدمير قوى الدفاع ثم شق الطريق إلى عاصمة العدو لإملاء الشروط وتحقيق الأغراض التى أثير القتال من أجلها . . والمهاجم دائماً يود أن يقلل ما أمكن من المعارك الدموية ولذلك يوجه قصارى جهده للوصول بسرعة إلى العاصمة ، التى هى قلب البلاد النابض ، ومركز الحياة والنشاط ، وهو بذلك يستطيع أن يؤثر فى روح المحاربين وعزيمة الأهلين فتنتهى المقاومة ويتم التسليم . . ولذلك لم يعد ضرب الجيش هو كل ما يفكر فيه الغزاة ، فإن الهزيمة العسكرية لا تتم جميع المقاصد إذا ثار الشعب للمقاومة والدفاع ، فأصبحت الهجمات الشديدة توجه إلى المدنيين والمحاولات العديدة تبذل للقضاء على مقاوماتهم و إجبارهم على وقف القتال

وكنتيجة لاستخدام الطائرات تطور مدى الهجوم وغاياته ، وتعرضت لذلك روح الشعب وقدرته على المقاومة ، فكانت الطائرات بذلك أقوى وسائل الإرهاب التى تشن على المدنيين بما تصبه على رءوسهم وبيوتهم ومدنهم من القنابل والمتفجرات البالغة شأواً كبيرا فى إثارة الفزع ، وسفك الدماء ، وتخريب الديار

وقد أصبحت المدن تهاجم وتدمر دون حاجة إلى أن يدخل المهاجمون فى أراضى أعدائهم ، كما أمكن دحر الأهالى و إراقة دماء

المدنيين بصورة أبشع من كل ما حدث فى الماضى ، فأصبحت البلاد أمام محن رهيبة وكوارث جلى وتجارب قاسية .

كما أنه أصبح فى إمكان العدو ، بفضل طائراته ، أن يصب جام غضبه ونيرانه على العواصم والقلاع التى تتركز فيها أعصاب الأمة ، دون أن يكون للغارات الجوية أدنى ارتباط بما تفعله الجيوش البرية فى ساحات القتال .

ولم يعد متعذراً على طائرات الضرب أن تفعل بسرعة حاسمة ما كانت تعجز عنه مدفعيات الحصار عنـد ما كانت تطوق المدن والحصون وتدمر المرافق والمساكن على أصحابها . . لقد تضخمت آلات الشر ، فجعلت المدنيين يرزخون تحت خطر داهم يدمر مدنهم ويشتت جموعهم مما ينتهى أمره بإهدار روحهم المعنوية والتأثير فى مقدرتهم على المقاومة والكفاح . . وهذا هو وجه الخطر الأكبر فى الحرب الجوية، لأن الغرض الأهم لها هو مهاجمة الروح المعنوية للشعب بكل عنف وقسوة

وتقوم استراتيجية الحرب الجوية على عاملين أساسيين : المفاجأة وقوة التدمير ، والمفاجأة عنصر أساسى فى الحرب ، بل هى أول عوامل النجاح .

والواقع أنه قبل استخدام الطائرة لم يكن فى استطاعة أى دولة أن تفاجىء واحدة من جيرانها بمثل هذه الصورة التى حدثت فى الحرب الأخيرة، فكل «تعرف لدرجة مضبوطة ما تحتاجه الأخرى من وقت لتعبئة

قواتها وحشدها على الحدود ، وإذا حدثت مفاجأة هجومية على حدود الممالك فإنها تكون محدودة الأثر ، فعند ما اخترقت القوات الألمانية حدود بلجيكا فى أغسطس عام ١٩١٤ نالت ثمرة المفاجأة بما حدث من ارتباك فى الخطة الفرنسية ، ولكن جوفر استطاع بعد قليل أن ينظم من تشكيله للمعركة وأن يواجه هذه الحالة المفاجئة والتى كانت إلى حد ما معروفة ولكنها غير متوقعة . . أما باستخدام القوات الجوية فإن صور المفاجأة قد تغيرت ، فالقوة الجوية لا تحتاج إلى ترتيبات التعبئة والحشد المعروفين فى القوات البرية ، فهى دائماً على تمام الاستعداد ، وبذلك يمكن إطلاق الأسراب من حظائرها فى أى لحظة فتتجه توا فى سرعة خاطفة إلى الأغراض التى تمطرها وابلا من قنابلها دون أن يعد العدو أمره لمثل هذه المفاجأة التى تنطوى على أخطار جسيمة ونكبات مروعة ، فالسلاح الجوى سلاح سرى ، يملك المفاجأة الاستراتيجية التى تسبق اشتباك القوات ووقوع الحرب ، ولذلك كانت مفاجأة اليابانيين للأميريكيين كبيرة الأثر مروعة النتائج عند ما أغارت طائراتهم على ميناء بيرل على حين غرة ، فكان اعتداء عنيفاً نجمت عنه خسائر فادحة للأسطول .

وتجىء المفاجأة فى صور أخرى كاستخدام الطائرات فجأة وعلى مدى واسع فى أثناء عملية حربية فتتعرض القوات للفناء وتنتهى المعركة بشكل حاسم ، كما يوجه الهجوم الجوى إلى المدن الصناعية وخطوط

المواصلات والمرافق الهامة فيكون تدميرها ضربة قاضية للعدو ، وقد كان يظن أن توجيه الهجوم الجوى إلى قوات العدو الجوية والمطارات هو فى مقدمة الواجبات ولـكن ظهرأن هذه الأغراض الموزعة المتباعدة الـكثيرة تعد فى الترتيب الثانى من الأهمية

فإذا انتقلنا إلى العامل الثانى وهو قوة التدمير وجب أن نضع نصب أعيننا أن الطائرة سلاح تدميرى كالمدفع .. وقد وجدت المدافع منذ بعيد ، وتطورت وطالت مسافة المرمى ودقة التنشين وسرعة التوجيه وقوة القذائف . . ولـكن الطائرة سبقت المدفع فى وجوه متعـددة ، فالمدفعية ما زالت محدودة ذات أغراض ثابتة وأقواس النيران تحدد تبعاً لقوة الرمى كما أن كمية المواد المتفجرة التى يمكن أن تشحن بهـا قنبلة المدفع تخفض بالتبعية لضرورة زيادة سمك جدران القنبلة حتى يمكن أن تحتمل صدمة الانفجار ، ولهذا فإن مرمى ثلاثين ميلا قد يـكون أقصى مدى للمدفعية ، وهذه الأميال الثلاثون ليست شيئاً اليوم فى حرب الحركة ، و إن كانت شيئا فى نفس ميدان المعركة . . كما أن المدافع عرضة لنيران مضادة من مدفعية العدو ، وهى لا تستطيع الاختفاء بسهولة من الملاحظة والنيران

أما مدى الطائرة فغير محدود ، وهو أكبر من مدى المدافع مهما كان قطرها ومرماها ، ثم إن القنبلة التى تقذفها الطائرة تـكاد تـكون كلها من المواد المتفجرة أو الغازية أو المحرقة

والطائرات بدورها عرضة لتدابير مضادة فهى تقابل بطائرات القتال وطائرات المطاردة ، والمدفعية المضادة للطائرات بما يعاونها من آلات كشفية و بواعث الأنوار ، والحواجز الجوية . . ولكن أفظع صور الهجوم الجوى هو ما يتمثل فى الهجمات على المدن بقصد تدميرها والتأثير فى القوى المعنوية للمدنيين

وأهم ما يجب أن يعنى به فى هذا الصدد هو كيف يدبر أمر المدنيين لوقايتهم من شرور الإغارات الجوية ، وذلك كى يجتنبوا الخسائر الفادحة فى الأرواح والممتلكات ، وكى لا تقع الدولة فى مشاكل داخلية وفوضى بسبب ما يحدث من الفزع والاضطراب

ويجب أن نبدأ هذه التدابير بحملة واسعة لافهام الجماهير عن الفرق الصحيح بين « الشجاعة والحماقة » و بين التعقل والاستهتار ، فهذه مسائل يخطىء الناس تقديرها كثيراً ، والتواكل هنا يعد مصدر خطر كبير وهو خطأ لا يقره الدين ولا الاجتماع

فالجندى الذى يؤمر بالتقدم فيفزع ويتراجع جبان ، ولكن الجندى الذى لا يستتر إذا مرت الطائرة فوق رأسه وهى تلقى قنابلها أحمق لأنه يعرض نفسه للخطر دون أى كسب ، والرجل الذى يتقدم بين النيران لينقذ فتى صغيراً رجل شجاع ، أما الذى يخرج من بيته إلى الشارع لينظر ما تفعله الطائرات أثناء الغارة الجوية لا يمكن أن نصفه بالشجاعة أو المخاطرة، ولكن الصفة الخلقية به هى الاستهتار أو الحماقة

إن واجب كل فرد هو أن يفكر جدياً فى وقاية نفسه أولا وأن يضع موضع التقدير تدابير هذه الوقاية ، فليس من الحكمة مواجهة أخطار الهجوم الجوى بغير وسائل الخلاص من اضرارها ، وقد جاء فى إحدى نشرات الوقاية حديث يجب أن يعرفه الجميع وهو «عندما تخرج من منزلك إلى محل عملك يجب أن تعرف أقرب الملاجئ بكل الطرقات التى ستمر بها ، وعندما تسمع صفير الأنذار يجب الاسراع إلى المخبأ للنجاة بنفسك فى أقل النقط تعرضاً للخطر .. وتذكر دائما أنه ليس من الجرأة أن تظل فى الطريق العام ، بل من الحماقة أن تعتمد على الحظ وحده للنجاة ! »

إن كل رجل وامرأة يجب أن يعد نفسه فى هذه الحرب مقاتلا فى الخطوط الأمامية ، ولذلك فانه يكون خائناً وغير خليق بثقة مواطنيه إذا تراخى فى وقاية نفسه وأهمل فى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع الخطر وتفاديه .

يجب أن يعلم كل فرد مدنياً كان أو عسكريًا أن مواجهة الهجوم الجوى هو أمر من السهولة بمكان ، ولا يتطلب هذا أكثر من أن يحتفظ الفرد بفكره صحيحاً وروحه قويًا . . إن الطائرات سلاح ضد الروح المعنوية ، والعدو يلقى القنابل المتفجرة والمحرقة وذات الصفير ، للارهاب و بث الخوف والفزع فى النفوس . . ان الطائرات لم تقتل ولن تقتل عدداً كبيراً من الأفراد يتناسب وعدد القنابل التى تقذفها ، وأكثر الاصابات التى تحدث انما تكون نتيجة للاهمال والارتباك .

ما يجب على المدنى أن يفعله هو أن يظل مستوراً حيث هو ، أو ينبطح على الأرض مع خفض رأسه ، وكل ما يطلب من العسكرى الذى يتولى حراسة أو يكون مسئولا عن قطاع يدافع عنه هو أن يظل فى حفرته أو خندقه . . أما المدنى الذى يجرى فى الطريق ليبحث عن مخبأ ، والجنـدى الذى يترك نقطتـه فزعاً فإنهما يفعـلان تماماً كل ما يرجوه العدو .

إن المدنيين الذين يعرضون لقنابل الطائرات لأول مرة يصابون بنوع من الذعر والهلع قد يكون تأثيره أكثر من تأثير القنابل نفسها ! والمسألة فى بدايتها مسألة مفاجأة سلاح مجهول ، وكل ما هو جديد يخيف ، ولكن تكرار الحال يعيد إلى النفوس المضطربة هدوءها .

والعمليات التى حدثت فى غرب أوربا تثبت أن الهجوم الجوى يوجه بكثرة إلى العناصر غير المحاربة ، وكثير من الهجمات يقصد بها المدن الصغيرة والقرى والمناطق القليلة التحصينات والخطوط الدفاعية ، فالمهمة الأولى للطائرات هى ضرب الجماهير واحداث الخسائر فى الأرواح والمرافق الحيوية ، واضعاف عزيمة الأمة وتبديل أفكارها فى متابعة الحرب مما ينشأ عنه الفزع من المستقبل وانهيار الروح المعنوية . فالتدمير الذى لا هوادة فيه يثير الجماهير ويبعث الأزمات السياسية ، ولذلك كان للطائرات أثر كبير فى فرنسا أوجد حزب التسليم الذى كان يتشيع له نواب ووزراء ورجال مسئولون .

ولا تترك الطائرات رقعة من الأرض يمكن اعتبارها بمنجاة من الخطر ، فالبلاد من أقصاها إلى أقصاها يجب أن تستعد لمواجهة الهجوم الجوى ، وقد يحدث هجوم على قرية صغيرة دون أن تكون حاوية لأهداف عسكرية ، وذلك بسبب خطأ فى تقدير الهدف أو التباس بين غرضين ، فالطائرة تخضع لعدة عوامل لا يمكن السيطرة عليها جميعاً بدقة تامة ، وأى خطأ تقديرى مهما صغر ينقل الاصابة بعيداً عن نقطة الهدف لمسافات طويلة ، فالطائرة مدفعية كبيرة المرمى ولكنها غير مضبوطة التسديد على المرامى البعيدة ، ولهذا قد تصيب الطائرات أمكنة لا يمكن أن تكون أغراضاً لها ، فيجب ملاحظة ذلك عند تقدير المناطق الخطرة

وتقوم مشكلة ازدحام السكان فى المدن والموانى المحدودة الرقعة تبعا لضيق مساحة الأرض التى يمكن أن تشغلها من جهة و بسبب تعذر اتمام كل المشروعات الخاصة بالضواحى والقرى المجاورة من ناحية المواصلات وتوافر مطالب العيش ، على أن المرجع الرئيسى دائماً هو تعدد مطالب الحياة للفرد والمجموع ، وارتباط الأفراد ، ووجود المؤسسات والأندية والمدارس والمواصلات السهلة مما يغرى الأفراد بالبقاء ، حيث يمكن أن تتوفر لهم الكماليات قبل الضروريات . . وهذا التزاحم هو علة من أخطر علل الغارات الجوية مهما كان أسلوبها ، لأنه يزيد من عدد الخسائر فى الأرواح لا بفعل القنابل ذاتها وانما أيضاً بسبب ما تخلفه هذه المتفجرات من تدمير وهدم يزيد عدد الضحايا والخسائر ،

ولهذا تواجه المناطق المزدحمة بالسكان دائماً بأكثر الهجمات الجوية وأعنفها مما يتسبب معه خسائر جسيمة فى الأرواح والممتلكات يكون لها تأثير رجعى على الروح المعنوية بسبب الخوف والقلق على المستقبل ، و بسبب فقدان الثقة فى مصير الحرب وزعزعة مركز الدولة

و يلاحظ أن حشـد الهجوم كله يوجه إلى المناطق الصناعية حيث يزدحم العمال والطبقات الفقيرة التى تعمل فى المصانع والمواصلات فتؤدى المتفجرات فى هذه المناطق المتداعية إلى كوراث جلى لا تحدثه فى الأبنية الحديثة المقواة بدعامات الحديد والأسمنت

والخطورة من القنابل الشـديدة الانفجار ليست من الشظايا وحدها ، فالانفجار يعقبه اندفاع الهواء فى اتجاه خارجى لمكان سقوط القنبلة يحدث تموجات هوائية قوية تهدم الأبنية وتسبب سقوط الجدران وتصدع الأسقف وتهشم النوافذ والأبواب . . هذه الخلخلة الهوائية هى التى تزيد نسـبة الخسائر فى الأرواح خصوصاً عند ما تزدحم الأبنية وتتلاصق كما هو الأمر الشائع فى المدن المزدحمة

وقد أثبتت التجارب أن أغلب الخسائر فى الأرواح إنما حدثت بسبب سقوط الدور وتهدمها ، وللوقاية من هـذه المناطق الخطرة يجب اجراء عمليتين : الاخلاء ، وانشـاء المخابىء والملاجىء . . أما جعل المنازل نفسها فى أمن من الغارات الجوية فمسألة متعذرة مهما حدث من تعديل أو تقوية فى المنزل المبنى من الأحجار العادية . . إن تلمس الوقاية

بالبقاء فى المنازل — فى المناطق الخطرة — ليست منطقية إلا فى الأحياء الجديدة حيث تبنى الدور بدعامات من الحديد والأسمنت والتجهيزات الفنية الحديثة .

على أن إخلاء السكان من المناطق الخطرة هى الوسيلة التى لاغنى عنها لتجنب كوارث لاداعى لها . . يجب أن تخلى هذه المناطق من سكانها الذين لا يوجد ما يرغمهم على البقاء فيها . على أن يتضمن مشروع الإخلاء تنظيم مستعمرات العمال ، وإقامة قرى المهاجرين.

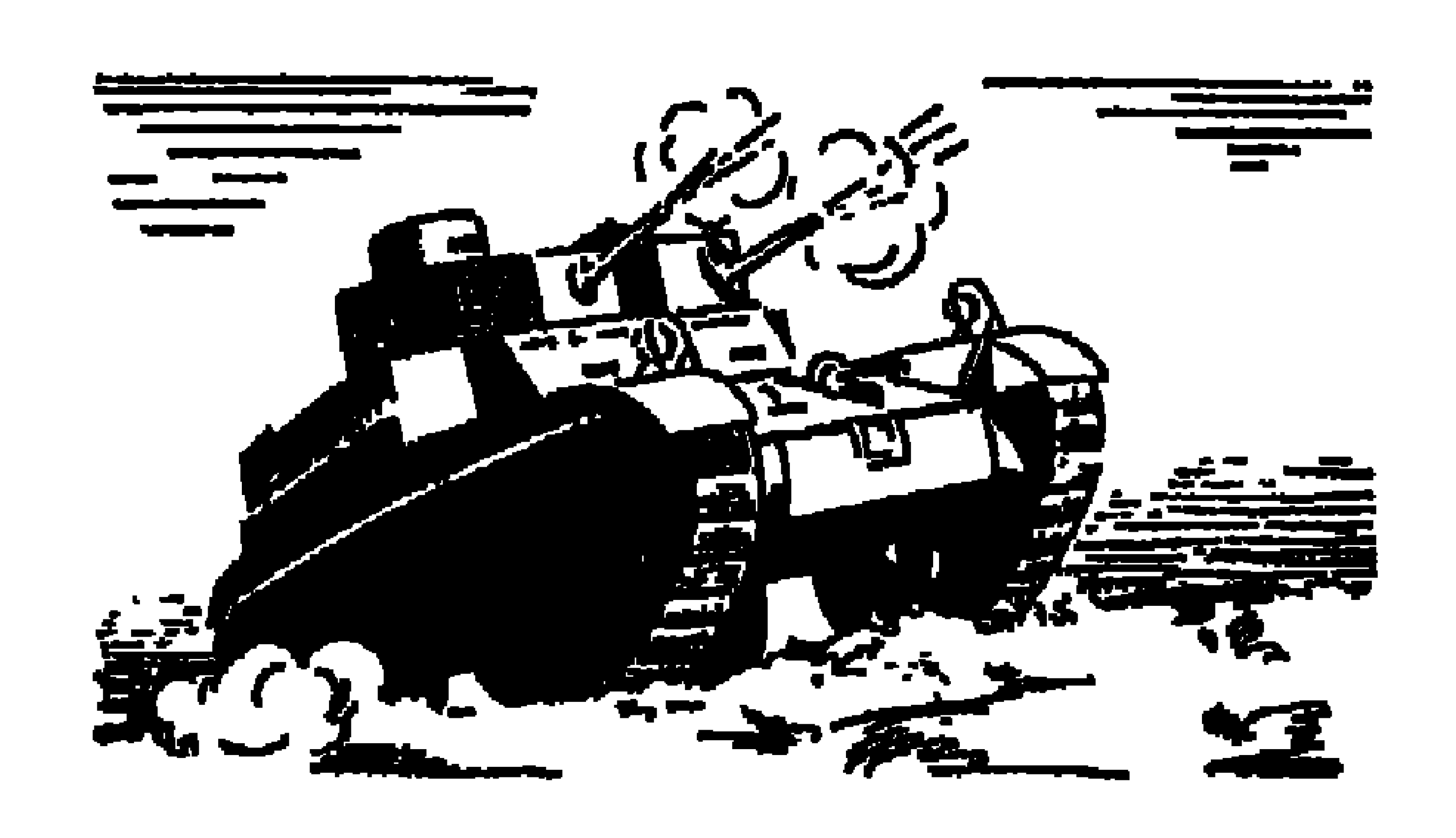
ومشكلة اللاجئين من أعقد المشاكل التى تتعرض لها الحكومات فى أوقات الشدة والحرج ، ويجب أن يتذكر كل فرد ما حدث من فوضى وارتباك لاحصر لها عندما كانت مدينة ما ترمى بالقنابل ، فيشيع الفزع والاضطراب بين الأهلين ويفرون من بيوتهم ومصانعهم ، كلٌّ يفكر فى نجاته ، فضاقت بهم الطرق ازدحمت المواصلات وعانى الجميع حالة نفسية شاذة صحبها أضرار بالغة للأفراد والممتلكات وأوقع الجهات الإدارية فى متاعب لا تقدر .

وتعتبر الخنادق عملا وقائياً جيداً ، وفى أى منزل به حديقة يكون الخندق أنسب من تقوية غرفة فى الطابق الأرضى ، على أن يكون الخندق على مسافة عشرين قدما على الأقل من أى بناء ، وأن يحفر فى خط منكسر — لا فى خط مستقيم — على شكل حرف T أو V مكرراً، وأن يكون به دراوى قاطعة وأن تكسى جدرانه بالخشب أو الصاج

المعرج ، ويغطى سقفه بالصاج وتلقى فوقه الأتربة وأكياس الرمل .

وقد انصرفت الهيئات التى تشرف على وقاية المدنيين من تجربة الخنادق إلى بناء المخابىء من الأحجار والسقوف الخرسانية ، وأفضل الخنادق ما أنشىء تحت الدور الجديدة المدعمة بالخرسانة المصلحة . . كما تبنى أقبية من الأحجار بارتفاع سبع أقدام وعرض سبع أقدام ، وهذا النوع كان شائعاً فى اسبانيا حيث أعدت أقبية تتسع لألف وخمسمائة فرد جالسين وسبعمائة واقفين . و بلغت تكاليف بناء ستين منها مليوناً ونصف مليون من الجنيهات أى بنسبة ١١ جنيهاً للفرد ، وتبنى فى انجلترا أقبية يتسع الواحد منها لخمسة وثلاثين ألفاً وتتكلف عشرة آلاف ومائتين من الجنيهات أى بنسبة ستة جنيهات للفرد .

وقد يقول فرد أن إعداد هذه المنشآت ومسئولية التدابير الوقائية جميعاً هو أمر تلتزم به الحكومات ، ولكن يجب أن لاننسى أنها مسألة أهلية أيضاً ، فكل فرد تعنيه سلامته قبل كل شىء وهو ملزم بالمحافظة على نفسه وتلمس الوقاية من الشرور المحدقة بالناس جميعاً ، فيجب أن نستمع للارشادات وأن نسرع فى تنفيذ التعليمات وأن نساعد الهيئات العاملة على بلوغ مقاصدها ، وأن نصدر فى كل ذلك عن إدراك للواجب وفهم للكوارث الأليمة التى حلت بالآخرين .





الدبابات : فرسان الحرب الحديثة

كان لظهور الدبابات فى الحرب الماضية أثر كبير فى تحول سير القتال ونقله إلى مرحلته الفاصلة بعد أن بقيت صورة الميدان طيلة ثلاثة أعوام بغير تغيير يبشر بانفراج الحالة أو اقتراب النهاية . . ولم يكن إنهاء الحرب فى جانب الحلفاء هو كل ما أحدثه استخدام الدبابات ، ولكن يمكن القول بأنها تسببت فى قلب صور الحرب وبزوغ عصر حربى جديد ، هو عصر المركبات الميكانيكية المدرعة ، فبدأت الجنود المشاة تحتمى فى مخابئ من الصلب متحركة على شرائط قوية فتقطع المسافات الكبيرة بسرعة هائلة وهى تطلق رشاشاتها وتقذف قنابلها دون أن تتأثر بحالة الأرض أو خطورة النيران .

وربما تكون الفكرة فى استخدام عربات القتال فكرة قديمة ترجع للعهود الحربية الأولى ، فقد استخدم المصريون القدماء العجلات الحربية فى غزواتهم التاريخية وفتوحهم الخالدة ، كما جرت العربات المدرعة التى تجرها الخيل فى ميادين سوريا واليونان ، واستخدمت أنواع متشابهة

لذلك فى الأعمال الزراعية فى أمريكا كما تستخدم السيارات والماكينات الزراعية ، وقد تجددت الفكرة أو زاد الإلمام بشأنها فى الفترة التى سبقت إعلان الحرب العظمى ، فقدمت عدة أنواع منها دون أن تظفر بتأييد كبير ، على أنه ثبت من المحفوظات الرسمية فى بعض الدول أن مذكرات ورسوماً قدمت بفكرة استخدام عربات مدرعة . . وكان أول رجل درست فكرته بتمعن وتدقيق هو الكولونل سوينتون من سلاح المهندسين البريطانى ، فقد تقدم إلى وزارة الحرب فى عام ١٩١٥ ومعه الرسوم والبيانات الخاصة باستخدام مركبة حربية جديدة تسير بالاحتراق الداخلى وتجرى على شرائط بدل العجلات ، وتحميها دروع من الصلب وتكون لها قوة نيران مناسبة ، وقد درست الدبابة على أثر ظهور هذا الاختراع الجديد فى وقت كان أهم ما يشغل القيادة فيه أن توجد وسيلة لخوض معترك النيران والوصول إلى خطوط العدو المنيعة المجهزة بأوكار الرشاشات التى كانت تحصد جنود المشاة كلما أقدموا على هجوم جديد .

وظهرت الدبابات الفرنسية للمرة الأولى على (الآين) فى ابريل عام ١٩١٧ فاخترقت خطوط الألمان ، وكان أول نجاح ملحوظ للدبابات الانجليزية فى معركة كمبرى (نوفمبر — ديسمبر ١٩١٧) وأعقب ذلك فوز عظيم للموجة القوية من الدبابات التى أطلقتها القيادة الفرنسية فأنزلت بالألمان هزيمة مروعة فى موقعة سواسون — المارن الثانية .

وقد هزمت الدبابة ألمانيا مرة أخرى فى (اميان) ، فقد عجزت مشاتهم أمام هذه المركبات العنيدة المتدفقة النيران التى تهجم بعنف وقسوة تتحطم أمامهما عبقرية المشاة وصفاتهم الحربية العالية ، فحدث التحول فى الحرب ، وانتقل النصر من قيادة إلى قيادة ، وبدأ عهد حربى جديد وانقلاب شامل فى فنون الحرب ونظرياتها وخططها الاستراتيجية والتكتيكية ، وفى تنظيم الجيوش و إعداد الأسلحة وتوجيه دفة العمليات الحربية .

فلما بدأت الحرب العالمية الثانية وجدنا وضعاً معكوساً ، فانجلترا وفرنسا اللتان أخرجتا الدبابة إلى الوجود وكسبتا بها معركة ضائعة ، لا تملكان كفايتهما من هذا السلاح العتيد ، أما ألمانيا التى كانت الدبابة عدوتها الأولى التى أضاعت منها حرباً عالمية وآمالاً كبارا ، فقد جاءت موفورة القوة ، معتمدة بقدر كبير على الدبابة ، فاغتصبت نفس السلاح من الذين استخدموه لتحطيمها ، وكسبت به المعارك المتوالية .

وتبحث عن سر ذلك ، فتجد من ناحية أن الإمبراطوريتين الغربيتين كانتا فى غفلة من الاستعداد وانصراف عن شئون الحرب لأسباب شتى تمت بصلات للسياسة ونظم الحكم وللحالة النفسية ، فقد كان رجل الشارع فى لندن وباريس يرى أن الحرب مستحيلة الوقوع وأن العالم سيبقى مكفول الأمن موعوداً بالسلام الدائم . . ومن الناحية الثانية نجد أن سبعين مليوناً من الألمان كانوا يعملون فى دائرة

واحدة تأخذ مجهودهم جميعا لانشاء أكبر حشد عسكرى فى العالم ، فكان طبيعياً أن تأخذ الدبابة مكانها الأسمى فى صلب الأداة الحربية العظمى .

وفى سباق التسليح والاستعداد بين المانيا وروسيا أخذت الأخيرة فى حشد ملايينها المائة والأربعين لإنشاء قوة عصرية هائلة فأنتجت عدداً كبيراً من الدبابات ذات الحجوم والقوى والخواص المتباينة .

وقد ظهر أن العمليات الحربية الحديثة تنهض على أساسين : الدبابة والطائرة . وبهما أحرزت ألمانيا انتصاراً سريعاً ، وحققت فتوحا تعد من المعجزات ، ولم تكتف الدبابات بأعمالها فى ساحات القتال ولكنها نقلته أيضاً ، ضمن أسلحة الحرب الحديثة ، إلى داخلية المدن ، وظهرت الدبابات فى الشوارع وحاربت المدنيين ، وقوبلت بالأسلحة المضادة ، ومقاومات العصابات ومجهودات الأهالى ، فلم يعد حديث الدبابات بالشيء الذى يوجه إلى العسكريين وحدهم ، ولكن كأى أحاديث فى الحرب أصبح قميناً بمعرفة الجميع حريًّا باهتمامهم وعنايتهم .

فرجال العسكرية وأهالى المدن يجب أن يفهموا الدبابة وأن يعرفوا طرائق مقاومتها سواء حدثت هذه المقاومة فى ميادين القتال أو فى شوارع المدن ، وهنا ينفصل البحث إلى شطرين ، فللعسكريين أسلحتهم المضادة للدبابات من بنادق ومدافع وألغام ، وللمدنيين أسلحتهم أيضاً من القنابل اليدوية والحفر وعتلات الحديد وزجاجات البترول

وأمثالها مما استخدم فى عمليات سابقة وأحرز نفس النتائج التى تستطيعها أسلحة الجنود .

وتعد الدبابات سلاحا أكثر خطورة من الطائرات بالنسبة للقوات التى تعمل فى الميدان ، ولذلك تجهز المواقع الدفاعية ومداخل المدن بالموانع المضادة للدبابات ، وذلك ببث الألغام وعمل الحفر وإقامة حواجز الأسلاك فوق ما يستخدمه المدافعون من الأسلحة المضادة ، والدبابة سلاح هجومى شديد فهى التى اخترقت الخطوط الألمانية فى الحرب العظمى ، وهى التى لعبت دوراً كبيراً فى حرب أسبانيا ، وأخيراً هى التى غزت بولندا والأراضى الواطئة ثم اقتحمت الاستحكامات الفرنسية وأخضعت فرنسا .

وقد ظهر أن الأسلحة المضادة للدبابات لم تتطور بالسرعة التى تطورت بهـا حجوم الدبابات ونيرانها ودروعها وتجهيزاتها ، فلم تف بالغرض المطلوب ، وكان ذلك ظاهراً بوضوح فى العمليات الاسبانية حيث استخدمت مدافع فرنسية مضادة للدبابات عيارها ٣٧ مليمترا ، ولكن قنابلها كانت ضعيفة بالنسبة لقوة الدروع ، وكانت سرعة القذف وقوته غير كافيتين لإصابة الدبابات الثقيلة ، وكانت هناك مدافع روسية عيار ٤٥ مليمتراً ذات قنابل تزن الواحدة ضعف القنبلة الفرنسية ، فكانت بسبب هذا من الأسلحة المؤثرة ، وعلى الرغم من ذلك استمرت صناعة الدبابات فى الارتقاء والتطور ، فكان لزاما أن تتطور الأسلحة

المضادة لها ، وقد كتبت عن ذلك عدة تقارير قدمها الضباط الفرنسيون والمراسلون الحربيون لعدة ممالك ! ! فلم توضع هذه التقارير موضع العناية والدرس ، بينما أخرجت ألمانيا نوعاً ممتازاً من المدافع ، عيارها ٨٨ مليمتراً كانت تستخدم ضد الدبابات وضد الطائرات وفى أعمال الميدان ، فلما نجحت التجربة أنتجت المصانع الألمانية عدداً وفيراً منها .

وفى سبتمبر ١٩٣٩ غزا الألمان بدباباتهم وطائراتهم بولندا ، وفى مايو سنة ١٩٤٠ جاءوا بدبابات أقوى وأكبر ، واجتاحت هذه الدبابات بلجيكا وفرنسا وأرجعت الحلفاء أمام وابل شنيع من النيران وهجمات عنيفة لم يكن من السهل دفعها بغير أسلحة قوية مضادة للمدرعات وهذا هو ما كان ينقص المقاومات الفرنسية التى انهارت بسرعة غريبة . . والدرس الذى يتلقاه العسكريون من ذلك هو أن الدبابات يجب أن تقابل بأسلحة قوية تستطيع إيقافها وتحطيمها . . على أن هذا هو نفس الدرس الذى كان يمكن استخلاص من العمليات الأسبانية .

فقد كانت القوات الشيوعية تفتقر إلى الأسلحة المضادة للدبابات ، وكانت الأنواع المستخدمة هى مدفع فرنسى عيار ٢٠ مليمترا سهل الاستعمال وقوى ضد الدبابات الخفيفة ولكنه يعجز أمام الدبابات المتوسطة والأنواع الخفيفة الألمانية الممتازة ، ومدفع عيار ٣٧ مليمترا أقوى بدرجة مؤثرة ، ولكن الدبابات كانت أقوى تدرعاً بدرجة تحتاج إلى أنواع أكبر سرعة مع قنبلة أثقل وزناً ، وكانت المدافع الروسية

عيار ٤٥ مليمتراً هى أقوى الأنواع التى استخدمت ولكنها كانت قليلة .

على أن الشىء الذى عمل فى أسبانيا لمقاومة الدبابات وأحرز نجاحاً ملحوظاً لم يعمل فى غرب أوروبا لأن الرأسماليين الذين يتاجرون بالأسلحة لا يرتضونه ، وكانت القوات المسلحة فى أسبانيا ورجال العصابات وعامة المدنيين يقاومون الدبابات بوسائلهم الخاصة التى كان أهمها القنابل اليدوية . . وقد ظهر أن كل ثلاث دبابات دمرت بقنابل اليد كان يقابلها دبابة واحدة دمرتها المدافع المضادة للدبابات .

والمقاومة الشعبية التى حصلت فى اسبانيا لم يحصل لها مثيل فى فرنسا ، ففى الأولى هبت الجماهير للمقاومة ولم تترك أماكنها ، كان كل فرد يفكر فى الكفاح الأهلى الذى سيقرر مصير بلاده ويستخدم غاية تفكيره فى عمل شىء يساهم به فى هذا الكفاح ، فكان العمال يتصيدون الدبابات بقذف لفافات الديناميت والمفرقعات ، ويستخدمون القنابل اليدوية وعتلات الحديد ، ويقيمون الحفر ، ويبثون الألغام ويغرقون الأراضى بالمياه كلما كان ذلك ممكناً . . .

أما مقاومة الدراجات الميكانيكية — التى كانت تتقدم الدبابات فى عملياتها — فكانت من الأعمال الجريئة التى نهض بها المدنيون ، فالأهالى لم ينزعجوا ولم يفروا من دورهم وقراهم عندما كانت هذه المواكب الصاخبة تسعى اليهم ، وإنما كانوا يهرعون إلى الزجاجات يجمعونها وقطع الحديد والأحجار فيسدون بها طريق العدو ، فالزجاجات المكسرة

تؤثر فى إطارات المطاط وعجلات السيارات المدرعة ، فإذ أوقفت الدراجات الميكانيكية توقفت الدبابات ، وإذا تعطلت هذه أوقفت تحركات الجيوش وتغيرت اتجاهات المعركة

ومما يجب ملاحظته أن السيارات المدرعة والدبابات الخفيفة تتسلح برشاشات آليه ، وهذه تعطيها قوة نيران مؤثرة إلى مسافة نصف ميل ، غير أن نيرانها لا تخترق استحكامات الوقاية فلا تنفذ فى الحوائط ولا تؤثر فى حواجز الأتربة وشكاير الرمل إذا بلغ سمكها أكثر من ثلاث أقدام ، فمقاومة هذه الدبابات بنيران البنادق العادية لا يكون مجدياً بل يكشف المواقع الدفاعية ، ولكن الأفضل أن يتستر الرماة المتسللون فى مواقع كاشفة ويصوبون بنادقهم نحو أفراد أطقم الدبابة ، وإصابة واحد منهم تحدث اضطراباً فى الباقين ، وإذا أقفلت المنافذ فى الدبابة أصبحت « ثلاثة أرباع عمياء » كما يقولون مما يسهل تصيدها بالأسلحة الأخرى . . أما الدبابات الخفيفة والمتوسطة فتكون مسلحة بمدفعية خفيفة ، وكثيراً ما تجىء متبوعة بلوريات تحمل مدافع الميدان التى تستطيع أن تدك البنايات والموانع ، وتحمل الهاون وهو سلاح قوى يصدع المواقع الدفاعية، ولذلك يجب أن يلتفت إلى وجود هذه الأسلحة المساعدة عند التفكير فى لقاء الدبابات

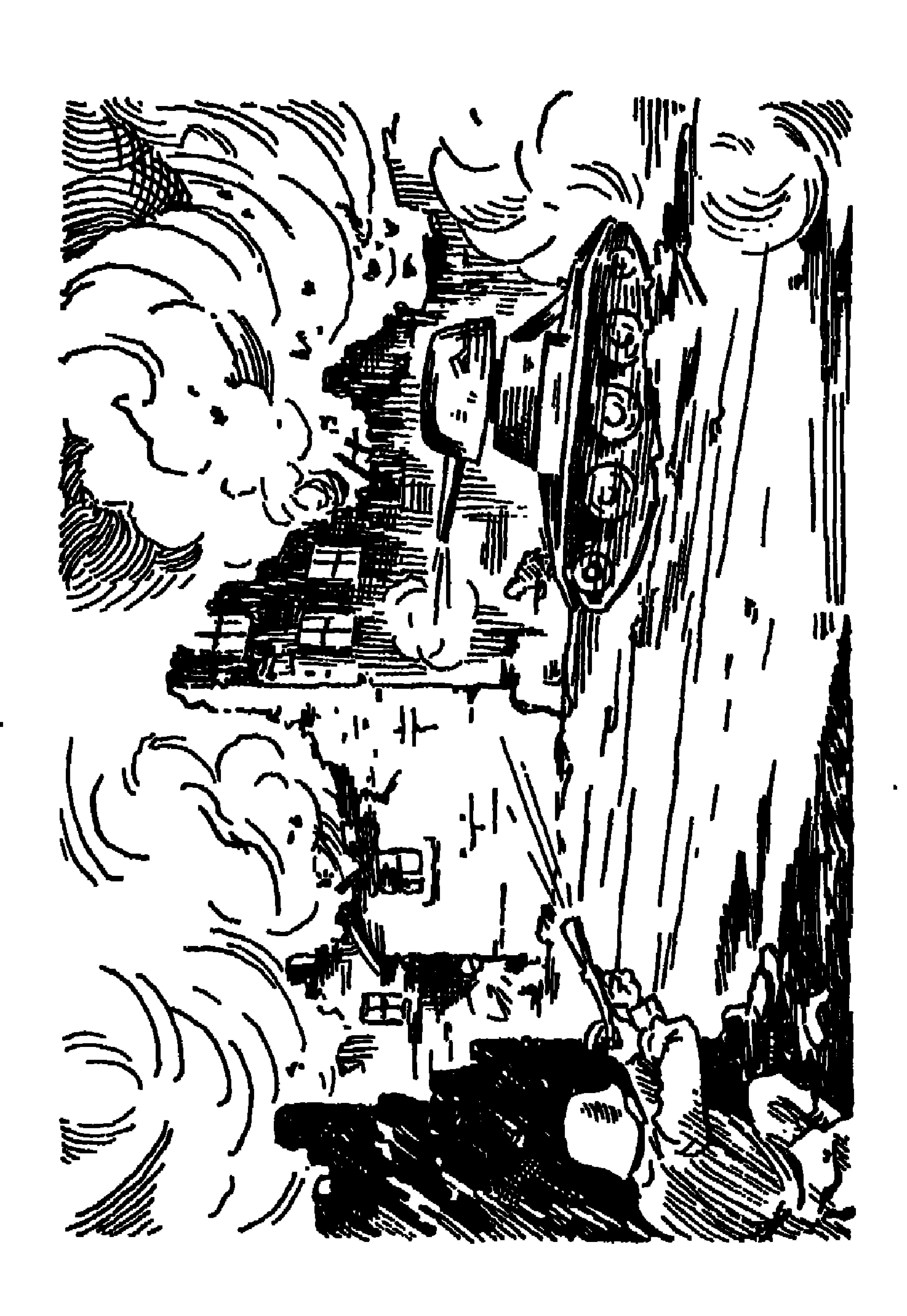
والحفر إحدى الوسائل التى كان لاستخدامها أثر كبير بشرط أن يكون للحفرة حائط عمودى بارتفاع ست أقدام يقوى بالأسمنت أو الحديد

أو جذوع الأشجار . وأن يكون الجانب المواجه لزحف الدبابات منحدراً من القاع تدريجياً وأن تكون سعة الحفرة بين الحافتين العلويتين ١٥ قدماً . . وتكون هذه الطريقة مفيدة فى الممرات الضيقة المحدودة بطرق مائية أو أراض وعرة حتى لا يمكن للدبابات تغيير اتجاهها بسهولة ، وفى مثل هذه الحالة يكفى تعطيل دبابة واحدة لايقاف القافلة جميعاً

أما بالنسبة لقنابل اليد فهى سلاح جيد لكل الأفراد ، ولا يتطلب إلقاء قنابل اليد توفر التنشين المضبوط . بل يكفى أن يكون التوجيه صحيحاً واصابة الدبابة فى أكثر من مكان تعطلها ، والتدريب على هذا لايتطلب أى استعدادات خاصة ، ولكن استخدامها يتطلب حذراً فلا تقذف القنبلة متدحرجة على الأرض ، ولكن ترمى لأعلى لتكتسب مسافة ، ويجب أن يلاحظ الرماة تقدير المسافة وأن يقوا أنفسهم من الخطر ، فمن الخطأ أن توضع الأسلحة فى أيد غير مدربة فتصبح أخطر على مستعمليها من العدو نفسه

والتكتيكات المتبعة فى أى منطقة تتعرض لهجوم الدبابات تتلخص فى أن يوزع قاذفو القنابل فى تشكيل واسع بعمق كبير وراء النقط القوية التى تقاوم فيها المشاة ، فمواجهة ثلاثة أميال تتطلب ١٥٠ فرداً، ومعنى هذا أن كل دبابة يواجهها رجلان . فإذا تقدمت الدبابات والسيارات أمكن هؤلاء أن يلقوا تحتها قنابلهم اليدوية الكبيرة ، فإذا جاء جنود المشاة وراءها قابلوهم بالقنابل الصغيرة ونيران الرشاشات الآلية

وقد حدث في الحرب الروسية أن مقاومة العصابات الشعبية قد أثرت تأثيراً خطيراً في مجرى الحرب ، فحيثما تقدمت القوات المهاجمة كانت تلقى المقاومة العنيفة ، فكل شجرة كانت تخفي وراءها مدفعاً مضاداً ، وكل فرد مدني كان يخفي في طيات ثيابه قنبلة يدوية أو لغماً ، وقد أفلحت الدبابات في جميع عمليات الميادين ، ولكنها في المدن والشوارع سلاح يمكن مهاجمته وقلب خططه مادامت الأسلحة في الأيدي والشجاعة في القلوب .



حرب الشوارع

يجب أن تحاربوا بدون أن تكون هناك
فكرة للتراجع ، ويجب الدفاع شارعاً
فشارعاً وبيتاً فبيتاً وطابقاً فطابقاً وغرفة
فغرفة «جنرال رود يستيف»

كانت الحرب الخاطفة تطوراً سريعاً للحرب الهجومية فوجئ العالم بأسلوبها المثير وقوة مضائها ، على أن هذه الحرب ما لبثت أن اصطدمت بعاملين جديدين لم يوضع أمرهما موضع التقدير ، ولم تستطع الحرب الخاطفة أن تتغلب عليهما . . . هذان العاملان يمكن أن يقال عنهما معاً « الحرب الأممية لمجموع الشعب » ، ولو تحدثنا عن كل على حدة فهما « حرب العصابات » و « قتال الشوارع » .

وقد أثبتت الحرب الألمانية الروسية أنه يمكن إيقاف الفرق المدرعة وتعطيلها فى المدن والقرى والمناطق المبنية ، وبذلك تستطيع قوات الدفاع أن تنسحب وتعاود تنظيم وحداتها والكر بهجمات مضادة

وقد نجحت هذه العمليات فى روسيا إذ أمكن تعطيل الهجوم الجارف على المدن الكبيرة مثل كييف وأوديسا ، وفى سنة ١٩٤٢ نجح الروس فى عملية تعطيل طويلة الأمد فى سباستبول كما أمكن إيقاف الاندفاع الألمانى السريع فى الدون العلوى نتيجة قتال عنيف فى طرقات فورونيز ، ثم اختتمت تلك السنة بأروع معركة كانت هى التى غيرت اتجاه المد ، وقلبت التوازن الحربى فى ذلك الحين ، ونقلت قوة المبادأة ليد الروس . . . هذه هى معركة ستالينجراد التى بقيت طرقاتها وأزقتها بما فيها من أبنية ومصانع تتداولها الأيدى لأيام طويلة حتى انتهت بانسحاب الألمان .

والسلاحان الرئيسيان للقتال فى الحرب الخاطفة لا يعطيان الأفضلية عند القتال فى المناطق المبنية ، فالدبابات لا تستطيع حمل الكمية الكافية من الذخيرة لتمهيد الطرق ، هذا عدا تعرضها لخطر مباشر من المدافعين الذين يحتلون الأبنية على جانبى الطريق ، ويكفى أن تتعطل إحدى الدبابات ، أو تنقلب عربة كبيرة فتسد الطريق وتعطل مسير القول بأجمعه ، وإذا كانت الدبابات الكبيرة تستطيع اختراق الأبنية الهشة واجتيازها ، فإنها فى الواقع لا تفعل ذلك دون المخاطرة بأسلحتها وشرائطها ، وكذلك التضحية بالسرعة مما يجعلها هدفا جيداً سهل الإصابة لقنابل اليد وزجاجات «مولوتوف» وغيرها من المفرقعات والأسلحة التى يستخدمها المدافعون ، أوتسلح بها عصابات المدنيين ، ثم يبقى بعد ذلك أن

الدبابات لا تستطيع إخراج المدافعين من هذه المنازل ، أوتلك الأبنية .

والطائرات بدورها أيضاً قليلة الأثر فى حرب الشوارع إذ لا يمكن ضبط عمليات التدمير لصعوبة تمييز الطرق حيث يختلط الجنود وتتشابك القوات فيصبح الخطر على الطرفين سواء . . . وقد عرف أن المبانى المهدمة تعطى فرصة للاختفاء واستخدام الأسلحة من خلف السواتر أكثر مما تعطيه المنازل السليمة ، ولهذا فإن الطائرات لا تستطيع أن تقوم بدور حاسم فى هذه المرحلة من القتال ، وكل ما تستطيعه إنما يكون الترتيبات الأولية للهجوم ، وما تحدثه من تأثير على الروح المعنوية . . أما القوة المؤثرة الفعالة فى الحرب الخاطفة ، وهى السرعة فيتضاءل أثرها وتتعذر فى حرب الشوارع .

وقتال الشوارع برغم هذه التسمية لايحدث فى الطرقات نفسها غالباً، لأن وضع الرشاشات الأولية يجعل التقدم متعذراً فادح التكاليف، و إنما يحدث ذلك القتال فى داخل الأبنية ، و بين بناء وآخر كأنها مجموعة من المعاقل تتبادل النيران وتدور حولها المصادمات العنيفة القصيرة المدى فى حماية السواتر والحواجز والأنقاض .

وعلى نقيض صور الحرب العادية التى جعلت الأسلحة الحديثة الأفضلية فى صف الهجوم ، فإن قتال الشوارع يعطى جانباً كبيراً فى الأفضلية فى صف الدفاع ، ومع أن الخسائر التى يتكبدها الطرفان تكون كبيرة ، فإن ما يتكبدة المهاجمون هو النصيب الأكبر منها .

وبما لوحظ أن الترتيبات الدفاعية إذا كانت مجموعة فى النطاق الخارجي للمدن ، فإن واجب المهاجمين يكون أكثر سهولة إذ تستطيع الدبابات أن تهاجم مثل هذه التحصينات الدفاعية دون أن تغامر بالدخول إلى الطرق ، فتحتشد بقوة كبيرة ضد قطاع ضيق من الخط الدفاعى ، ثم تشق ثغرة فيه تندفع منها إلى الأمام محاولة السيطرة على تقاطعات الطرق المهمة لمنع تحرك الإمدادات، وإرباك قيادة المدافعين ومواصلاتهم .

وقد وضح الأسلوب الألمانى فى الهجوم خلال عمليات طبرق — يونيو ٤٢ — إذ سبق الهجوم بنيران شديدة للمدفعية ، ثم جاءت الدبابات والمشاة المحملة فى لوريات دون أن تحاول مقاتلة القوات الألمانية بل بمجرد أن شقت ثغرة صغيرة فى النطاق الدفاعى أسرعت فى طريقها إلى قلب طبرق — أى منطقة الميناء والبلدة — مطلقة النيران بقوة على كل ما يصادفها . ، وعند ما أفلحت قوة من الدبابات والمدفعية فى الوصول إلى البلدة استدارت لتواجه النطاق الدفاعى وتهاجمه من الخلف .

ولو أن طبرق ليست مدينة كثيرة الطرقات أو مزدحمة الأبنية إلا أن الأصول الرئيسية للهجوم نفسها قد اتبعت فى المناطق الكثيرة الأبنية ، فالعمل فى كل مرة هو محاولة الوصول إلى ما وراء المنطقة الدفاعية ، ثم اقتحامها من الخلف ، وهذه المبادئ مشتقة من الأصل الأساسى للتسلل بالاختراق ، وهو الأسلوب الذى يتحكم فى كل التكتيكات الحديثة .

وعلة هذا أنه أسلوب يصلح للهجوم المضاد صلاحيته للهجوم . .

• والترتيبات الأولية التى يجب أن تعد للدفاع فى أى منطقة مليئة بالأبنية ، ليست هى الترتيبات للدفاع الثابت فى نطاق دفاعى ، بل هى الترتيبات اللازمة للهجوم المضاد ضد قوات العدو التى تخترق المنطقة الدفاعية بعمق كبير أو التى تسيطر على قلب المنطقة الدفاعية ، وهذا يعنى أن جميع الطرق المستورة التى تمكن من إخفاء تحركات القوات التى تقوم بالهجوم المضاد يجب أن تفحص وأن تعين وأن تعرف لكل فرد فى القوات المدافعة ، ولهذا فمن الضرورى أن تدرب القوات الاحتياطية المعدة للقيام بالهجوم المضاد على التحركات المستورة وعلى اكتساح الدور والأبنية التى يحتمل أن تكون الأغراض الأولية للعدو ، ويجب أن تفحص بعناية كل الطرق غير العادية التى تعبر منطقة مليئة بالأبنية كخطوط سكك الحديد المستورة وراء جسور من الرمال ، أو وراء أسوار مبنية أو قنالات الرى ، وفى بعض الأحوال يجب أن تسد الثغرات التى قد تكون فى هذه الطرق ، وبذلك لا تعرض القوات التى تقوم بالهجوم المضاد للرؤيا أثناء تحركها للقيام بواجباتها . وفى الأحوال الأخرى عند ما تكون هذه الطرق وسط الحدائق الخلفية للمنازل يكفى أن تستر الثغرات بوسائل بسيطة كالأردية المعلقة لتجف ، ولكن ما لم تكن هذه الفتحات معروفة من البداية ومستورة تماماً فان أقل ثغرة وسطها يمكن للعدو أن يغطيها بالنيران تسبب تعطل قوات كبيرة لساعات طويلة . .

والقوات التى تقوم بالهجوم أو الهجوم المضاد فى الشوارع والطرقات تستخدم الدخان الصناعى عادة للاستتار وتستخدمه بدرجة أكبر مما تستخدمه فى العراء ، و إحدى الصعاب الخاصة باستخدام الدخان فى المناطق المكشوفة هى أن هذا الدخان سريع التطاير أو أنه يتطاير فى وقت غير مقدر من البداية ، و بذلك تعرض القوات المهاجمة للنيران محكمة التوجيه . ولكن الدخان فى الطرقات لن يتطاير بسرعة لأن التيارات الهوائية محصورة وسط الأبنية ، ثم إن ستر الدخان يمكن أن تعد من احتراق الدور المهدمة وهذه الوسيلة أسهل من طريقة الأمداد بالدخان بواسطة المولدات أو القنابل فى الميدان المكشوف ، هذا عدا أن المنطقة التى يجب أن تستتر بالدخان قليلة عادة فى الشوارع ولهذا فإن المنطقة التى يجب أن تعبر من وراء هذا الستر هى أيضاً بدورها ضيقة . . . ومسألة أخرى تقوم معترضة استخدام الدخان فى العراء هى أن الجنود التى تتقدم تحت ساتر من الدخان قد تفقد الاتجاه ، ولكن التعرض لفقدان الاتجاه يحدث عادة — سواء أوجد الدخان أو لم يوجد — للقوات التى تقوم بالهجوم فى المناطق المليئة بالأبنية، ولكن القوات المدافعة والتى تقوم بالهجوم المضاد والتى تعرف المنطقة التى تقوم فيها بأى من هذه العمليات يجب ألا تفقد الاتجاه الذى تقصده قط

والأسلاك الشائكة ذات قيمة كبيرة فى قتال الشوارع أكبر مما يقدر لها فى العادة ، ففى المناطق المكشوفة يمكن تدمير نطاقات الأسلاك

الشائكة بالدبابات أو نيران المدفعية ، ولكن الدبابات لا تستطيع القيام بدور مؤثر فى قتال الشوارع ، ونيران المدفعية قد تدمر الأسلاك الشائكة حقا ولكنها تدمر أيضاً الأبنية التى على جانبى هذه الأسلاك وبذلك تزيد من الموانع التى تسد طريق المهاجمين .

ويمكن بسهولة أن توضع أو أن يعاد وضع نطاقات الأسلاك الشائكة وسط الطرقات لتسدها ، إلا أنه يجب أن يعرف المدافعون أنه لا الأسلاك الشائكة ولا سدادات الطرق ولا الموانع المائية كالقنالات وغيرها يمكن أن تعتبر موانع لا يمكن اجتياز العدو لها . بل يجب أن يعرف المدافعون عن يقين بأن القصد من هذه الموانع هو فقط تعطيل العدو إلى أقصى ما يمكن من وقت تحت تأثير نيران الأسلحة الآلية التى بها وحدها يمكن إيقاف أى قوة للعدو تحاول التقدم .

وفى تنظيم وضع الأسلحة الدفاعية فى قتال الشوارع يجب ملاحظة وضع الأسلحة الآلية فى الطابق الأرضى وذلك حتى يمكن أن تطلق نيران كاسحة على طول مرماها المؤثر ، وفى ذات الوقت توضع البنادق فى الطبقات العلوية حتى يمكن أن تسيطر على مرمى أطول ، وطاقم الرشاش الآلى يستطيع حماية نفسه ضد أى قوات للعدو تندفع نحوه حتى لو كانت هذه القوات على مسافة عشرين يارده من مكان الرشاش ، ولكن البندقية لا تمكن من هذا ، ولا يمكن أن يوضع عدد من البنادق تحمى كل منها الأخرى بدرجة تضمن عدم نجاح القوات المهاجمة

فى اكتساح المواقع الدفاعية التى يحتلها حاملو البنادق . . . والرشاشات الآلية الموضوعة على كلا جانبى تقاطع الطرق والتى تطلق نيرانا جانبية يمكن أن توقف تقدم أى قوات للعدو على طول الطرق الرئيسية كما تمنع تماماً اجتيازها لتقاطع الطرق نفسها . . . فإذا وضع إلى جانب الرشاشات الآلية بعض حاملى البنادق فإن هؤلاء يمنعون العدو من إحضار أى عربات لستر تقاطع الطرق من نيران الرشاشات كما أنهم يستطيعون أيضا أن يحولوا دون نجاح العدو فى اجتياز تقاطع الطرق تحت ستار الدخان بخسائر قليلة . . . لأن الرشاشات سترغم بسبب الدخان على إطلاق النيران على (الخط الثابت) أى فى اتجاه واحد لا يتغير .

والقوات التى تقوم بالهجوم فى المدن يجب أن يفكر أفرادها فى استخدام الدخان بمجرد أن يتعطلوا عن التقدم فى تقاطع الطرق بسبب النيران . . . ولكن من الحماقة أن تطلق مولدات الدخان مهما كانت صورتها ومبعثها ثم تحاول هذه القوات التقدم بمجرد انبعاث الدخان . . . ذلك لأن هذا الدخان سيجتذب ولا شك انتباه قوات الدفاع ، فإذا كان المدافعون يستخدمون رشاشات آلية متوسطة أو ثقيلة فإن هذه الرشاشات يمكن أن تضبط على خطوط ثابتة تتقاطع نيرانها ، وفى هذه الحال يجب أن يتريث المهاجمون لبعض الوقت حتى يضيق المدافعون بالإسراف فى الذخيرة أو ترتفع حرارة مواسير الرشاشات ويضطر المدافعون لتغييرها ، وفى أى الحالين يجب أن يتقدم المهاجمون

بسرعة ، وفى جماعات قليلة لاجتياز تقاطع الطرق ، أو المنطقة المغمورة بالنيران ، ولا يجوز بحال ما التوقف لمعاونة الجرحى فإن هؤلاء يتركون لوقت آخر فيما بعد .

ويجب أن تزود القوات التى تشترك فى قتال الشوارع بحبال قوية وعدد من أدوات الحفر كالفؤوس والكوريكات وسلال رفع الأتربة ، وقد بدت الحاجة لهـذه الحبال فى قتال الشوارع فى عمليات أوكرانيا ، وعلة هذا أنه عند ما يكون المدافعون يحتلون الأبنية التى على جانبى الشارع ويكون اجتياز الطريق مستحيلاً بسبب تحكم العدو فيه بالنيران ، فمن الممكن بواسطة هذه الحبال أن تلقى موانع الأسلاك الشائكة لتسد الطرق دون أن يقوم الأفراد بإنشائها وسط الطرق مع تعرضهم للنيران ، وعند ما يعزل المدافعون فى جناح ما يمكن أن ترسل لهم الأغذية والذخائر على روافع تنزلق على الحبـال التى تربط بين هذا البناء وأى بناء آخر قريب تكون به قوات أخرى من المدافعين ، ويمكن أن تسدل على هذه الحبال بعض الأغطية أو تدلى من فوقها الأقمشة فتكون ستراً تتحرك وراءه أى قوات تعمل فى وضع الألغام لتسد الطرق أو تمد التدابير لنسفها .

وتستخدم أدوات الحفر لعمل المزاغل فى جدران الأبنية ، وإن كان خير المزاغل هو ما يوجد نتيجة لانفجار قنابل العدو ، وعند ما ترغم القوات التى فى الدفاع على إنشاء المزاغل فى جدران أى بناء فيجب أن تعمل عدداً كبيراً منها وعلى ارتفاعات مختلفة ، وأن تسد

بعضها بأكياس الرمل ، وبذلك تجتذب بعض المزاغل نيران العدو بينا يبقى البعض الآخر بعيداً عن الخطر ، وخير المزاغل ما يكون على ارتفاع غير عادى، والذى يستخدمه جنود يقفون فوق مناضد أو مقاعد ، هذا عدا أن المزاغل العالية تسيطر أحياناً على جزء من الطريق أكبر من ذاك الذى تسيطر عليه المزاغل التى على ارتفاع عادى يستخدمها رجل راقد ، ويجب أن تعد بعض مواقع النيران فوق الأسطح ، وهذه تعاون أيضاً على استمرار مراقبة العدو .

ويجب ألا نغفل أن الحائط المقام من الأحجار العادية قد لا يوقف رصاصات العدو ، ولكن الرصاصة بعد أن تخترق الحائط لا تكون قوية ذات تأثير قاتل ، ويجب أن يتجنب المدافعون النوافذ تماماً ، ولا يصح أن تبرز البنادق من النوافذ أو المزاغل ، وعند الإضطرار إلى استخدام النوافذ كمواقع للنيران فمن الضرورى أن يكون الجنود بعيدين عنها فى داخل الغرف لمسافات معقولة تمنع خطر العدو ، ولكن لا تحول دون العناية فى إطلاق النيران .

وعند محاولة الانتقال من منزل لآخر يجب شق ثغرة فى الجدار المشترك بينهما كما يجب قذف قنبلة يد بسرعة من الفتحة قبل دخول الغرفة ، ويحسن أن تكون هذه الغرفة فى طابق سفلى ، ثم يسرع المهاجمون فى الدخول من الثغرة ويصعدون لتوهم إلى الطابق العلوى قبل أن يطهروا الطبقات السفلى من جنود العدو .

وفى قتال المدن يجب إعداد الوسائل لتدمير الدور بمجرد احتلال العدو لهـا كما يجب الانتفاع بالمفرقعات البريئة المظهر التى تنفجر بمجرد لمسها أو محاولة الانتفاع بها .

والسونكى سلاح لا يصلح لقتال المدن إلا ليلا ، وإلا فى الطرق المـكشوفة وراء ستر الدخان الكثيفة .

ورصاصة البندقية المضادة للدبابات يمكن أن تخترق الجدران ، ولهذا لا ينبغى أن يظن قادة الفصائل أن هذه البنادق هى سلاح دفاعى فقط ضد عربات القتال المدرعة ، فهذا الاستخدام لا وجود له فى قتال المدن .

وأصعب المشاكل فى قتال الشوارع هى الحرائق ، فالقوات التى فى الدفاع تعرض لخطر الحريق بسبب الأبنية الخشبية ، أو الأبنية ذات الأرضيات الخشبية ، أو الـكثيرة الأثاث المصنوع بالطبيعة من الخشب ، ولهذا عند احتلال أى منزل بفكرة الدفاع يجب لأول وهلة تغطية الأرضيات بالماء كما يجب رفع جميع الستر غير الضرورية لتقليل خطر الحريق ، وتملأ عادة بعض السلال بالرمال والأتربة كما تدخر المياه فى الأوانى لإطفاء الحرائق ، وتوضع الذخيرة الإحتياطية فى أقل الأماكن تعرضاً للنيران عند احتراق الأسقف ، ولـكن برغم كل هذه الاحتياطات فانه لا يمكن أحياناً السيطرة على هذه الحرائق والقوات التى فى الدفاع يجب أن تحسن استخدام الأفضلية التى

تمتاز بها على المهاجمين وهى معاونة الأهالى المدنيين ، فهؤلاء السكان يمكن أن يعبأوا للقيام بالكثيرمن الواجبات الضرورية كاشعال النيران فى بعض الأبنية التى لا تصلح للدفاع ولكنها تعطل تقدم المهاجمين ، كما يمكن الانتفاع بالأهالى المدنيين فى مراقبة العدو ونقل الأخبار وإتلاف مستودعات البنزين والمؤن وتمزيق إطارات السيارات وسد الطرق بالزجاجات المكسرة وقذف الدبابات والسيارات المدرعة بالزجاجات المليئة بسائل مولوتوف ، ويجب أن ينظر للدفاع عن أى منطقة مليئة بالأبنية على أنها معركة مستمرة لا على أنها عملية حصار فلا يجوز أن يضيع المدافعون الوقت فى إطفاء الحرائق لاسيما إذا كانت هذه الحرائق تعطل من تقدم القوات المهاجمة .

ويمكن لسكان أى مدينة إذا توفرت لديهم الجرأة والشجاعة والعزيمة أن يعطلوا لساعات أو أيام أقوى الجيوش الحديثة . فإذا وجدت قوات منظمة لمعاونة هؤلاء السكان المدنيين أمكن لهذه المدن أن تتابع المقاومة لأسابيع أو لشهور ، ثم إنه لسبب الأفضلية التى للدفاع فى هذه الصورة من صور القتال فإن العدو يرغم على أن يدفع ثمناً غالياً لكل طريق مدمر يحصل عليه .

والواقع أن قتال الشوارع هو إحدى الصور التى جاءت بها الحرب الأممية الجامعة ويمكن بواسطته إفقاد الحرب الخاطفة السرعة أى العامل الأساسى فى هذه الحرب . .



حقائق عن مأساة فرنسا

مضى أكثر من عامين على غزو الألمان لفرنسا ، وما زال هذا الحادث الجلل موضع الحديث والمراجعة ، لا يفارق المجالس ولا يغيب عن شتى المجتمعات ، وقد حدثت وقائع رهيبة فى هذه الحرب وغيرها وقلما تحفل الحروب العظمى عادة بالفواجع والمحن ، ولكن مأساة فرنسا تغلب ما عداها وتفوق مثيلاتها ، بل تحجب كل واقعة أخرى ، فانها ليست حادثة دولية ، ولكنها كارثة عالمية كان لها صدى فى كل وطن وأثر فى كل بلد . وسيبقى الناس عسكريون ومدنيون يتباحثون فى شأن فرنسا و يتجادلون فى مأساتها ، و يختلفون فى أسباب محنتها .

ولقد وضعت عشرات الكتب والمؤلفات عن ذلك الحادث المروع والمأساة المدنية الكبرى التى انتهت بهزيمة فرنسا وسحقها فى معركة وحيدة لا سابقة لها ، وما زالت دور الكتب تطلع علينا بالمزيد والجديد من هذه الكتب والمؤلفات ، وما استطاعت الأحداث الأخيرة فى مختلف ميادين العالم أن تخفف من وقعها أو تبعد ذكريات هذه

المأساة الكبرى التى ستظل قصة الجيل ، ورواية التاريخ

إن فاجعة فرنسا ليست هزيمة عسكرية تستحق عليها فرنسا كل هذه المؤاخذة ، فالهزيمة أمر يحدث لكل جيش ، وتتعرض له كل بلد ، ولكن الأمر بالنسبة لفرنسا لم ترجع أسبابه إلى انكسار فى معركة أو تقصير فى حرب ، ولكنه موضوع قديم تتفرع منه أسباب شتى متباينة اتفق المؤرخون على أنها كانت ملحوظة قبل أعوام من الحرب، وأنها بدأت فعلا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى

فلقد كان من الجلى أن ألمانيا تستعد لشوط جديد ، وتتأهب لقتال تثأر فيه مما حدث لها سنة ١٩١٨ ، وكانت الحرب الجديدة موجهة لفرنسا و بريطانيا ، ولما كانت الأخيرة بعيدة عن القارة فان الضربة المباشرة كانت تجهز لفرنسا . . فهل فهم الفرنسيون ذلك . . ؟ وإذا كانوا قد فهموه فهل أعدوا عدتهم له . . ! ؟

ولا شك أن علائم النهوض العسكرى فى ألمانيا قد لوحظت فى أكثر بلاد العالم ، وأنها كانت موضع خوف وتهديد فى القارة ، وقد انتبه فرنسيون بعيدو النظر إلى الخطر المقبل على فرنسا ، وأثير موضوع الاستعدادات الألمانية فى شتى المجالس والمجتمعات والصحف والمؤلفات ، وفى المحافل العسكرية والدوائر البرلمانية ، ولكن السياسة فى النضال الحزبى طغت على كل شىء ، وسلبت الحكام والقادة رءوسهم ، فأهملت الواجبات العسكرية . . ، وكلما جد الزمن فى المسير تزايدت

الحماقات وأصبح خير وصف لفرنسا أنها كانت «أمة منقسمة على نفسها، غير مدركة خطورة موقفها ، لا تستطيع أن توقف اندفاعها نحو الهاوية »

ولم تجد فرنسا حكاماً أقوياء يستطيعون توجيه البلاد هم لتجنب الخطر ، أو قادة أشداء لهم أصوات قوية أو طلبات تجاب ، وللأمم من صنع زعمائها ، وقد افتقرت فرنسا إلى الزعماء المخلصين كما أنها لم تجد القادة الأقوياء . . وفى لحظة الخطر لم تعثر برجل قدير ، ولم يكن لديها فوش آخر أو بوانكاريه جديد ، وليس لديها كلمنصو الذى كانت كلماته تندفع كطلقات الرصاص « لا شيء غير الحرب . . هلموا » !

والسياسة الفرنسية العليا كانت تنادى بالاقتصاد فى الدماء والاقتصاد فى الآلام . وأصبح الخطر قاب قوسين . ولكن الزعماء كانوا فى غفلة بسبب فعل الحزبية وشهوة الحكم ، وكان حب السلامة قوياً غلاباً أغرى الألمان على الاسترسال فى حرب الأعصاب ، فبدأت الغزوات السلمية واحدة تلو الأخرى دون أن تلقى معارضة فعالة أو تأهباً مسلحاً ، وباتت أوروبا تحت خطر التهديد الذى أفسد روح الشعوب وأضعف قوى الحكومات ، وأشاع الاضطراب والفوضى فحدثت الهزيمة فى الداخل قبل أن يصل العدو ، وتبخرت القوى المعنوية قبل أن تشتبك القوات العسكرية . . والمرء لا يغلب على أمره حتى يصاب فى روحه وفكره

وكان مفهوماً أن الحرب ظاهرة متغيرة تتبع قانون التطور

والارتقاء ، فالأسلحة والمعدات الحربيـــة ، والخطط الاستراتيجية والتكتيكية ، وجميع فروع القتال وحاجياته ، لا تبقى على حال ولكنها تتجدد وتتنوع وتشتد . . ولكن الرئاسات العسكرية فى فرنسا ظلت محافظة على تقاليدها القديمة التى كسبت بها الحرب الماضية ، فلم تتكلف هذه الرياسات عناء البحث والدراسة فيما يحدث من تطورات ، أو ملاحظة ما تستطيع المصانع الحديثة أن تقدمه للجيوش من آلات ومبتكرات عصرية ، فالفرنسيون القادة لم يفهموا معنى التطور فى الحرب ولم ينشطوا لإمداد جيوشهم بالأسلحة الجديدة ، ولم يروضوا جنودهم على الخطط والعمليات التى تفرضهـا الاستعدادات والأسلحة والمعدات المتوالية الظهور .

ومنذ أن استطاعت خنادق الميدان الغربى أن تمنع الألمان من الظفر بفرنسا ، أكبر الفرنسيون هذا النوع من القتال الذى كان الفريقان يتبادلانه وهما كامنان فى خطوط طويلة من الخنادق ، واعترفوا بفضل هذه الحفر المجهزة بأوكار الرشاشات ومواقع المدفعية ، والتى تحميها حواجز الأسلاك الشائكة .. وقد ظل ذلك القتال سجالا مدة طويلة دون أن يستطيع أى فريق أن يغير من أوضاعه أو يتقدم قليلا ! فالذى كان يترك خندقه كان يسقط فى الحال ، وفى هذا الوقت العصيب كان كل فريق يستعد بمحاولة جديدة ويترقب ابتكاراً يخرج به من بين القبور إلى حيث يعثر بالنصر والمجد « فى ذلك الوقت تقدم ضابط انجليزى

بفكرة وتصميم لأداة جديدة من أدوات الحرب فى هيئة عربة مصفحة تجرى على شرائط بدل العجلات ، ولها قوة نيران غلابة وسرعة سير صالحة ، ومقدرة على العمل فى جميع الأراضى دون أن تتوقف أمام العوائق أو العقبات التى تعطل المشاة ، وبذلك تستطيع هذه المنشأة الجديدة أن تجتاز مناطق النيران وتخترق تحصينات العدو » .

جاء يوم الدبابة، وتقدمت نحو مواقع العدو مكتسحة ما يصادفها من الأسلاك الشائكة متغلبة على التعاريج الأرضية والحفر ، وكان استخدام الدبابة هو بداية النهاية فى الحرب العالمية الأولى فقد قلبت صور القتال المعروفة ، فالحرب الثانية قد غيرت بحرب الحركة ، وأصبحت المدرعات فرسان القتال . . لقد بدأ عهد الآلات والقوى الميكانيكية وحدث الانقلاب الشامل فى ميادين الإنتاج والصناعة الحربية وفى الخطط والفنون العسكرية المختلفة .

وهكذا نرى أن الدبابة كانت سلاح الحلفاء ، وقد استخدمها الفرنسيون والانجليز قبل غيرهم ، فهى اختراعهم الذى أصبح مفخرة المخترعات الحديثة ، والأداة التى أكسبتهم الحرب الماضية ، فكان لزاماً عليهم احتضان ذلك الابتكار المنسوب إليهم والذى أسدى إليهم خدمة العمر ومنحهم أعظم انتصار ، ولكننا نجد أن الدولتين الغربيتين قد انصرفتا من شئون الحرب عموماً ، فأهمل السلاح الجديد فى عهد المسالمة والركود فتلقفته أيد أخرى ، ماهرة حاذقة ، كانت تعرف السلاح الذى

أضاع منها الحرب ، وبدأت سلسلة التجارب والمحاولات ، وأخذت المصانع تعمل بسرعة وقوة . . إن القوات الميكانيكية هي التي ستكسب حروب المستقبل ، ولذا تحولت جميع القوى لإنتاج الأسلحة الحديثة الحديثة ، فكان كل شيء في الدولة ولدى الأفراد موجهاً إلى دولاب الحرب . . وكانت البلاد الصناعية لا تنام والمصانع لا تهدأ والحركة لا تسكن ، لأن الحرب كانت تجهز ؛ ووسائل النصر تعد والنظام الجديد تكتب برامجه

كما أن سلاحاً جديداً كان قد بزغ في سماء المعارك العالمية الأولى وأحدث انقلاباً عظيما في العمليات الحربية ، وهو سلاح الجو ، الذي قلب أوضاع القتال ، وساعد على نقله من السكون إلى الحركة ، بل إلى الحركة السريعة ، أيد بمعاوناته السديدة القوات البرية لحمل الجنود والذخائر والمؤن ، واشترك بنصيب وافر في ضرب المراكز القوية والاستحكامات ، وكانت الفكرة الأولية في استخدام الطائرات هي قيامها بالاستكشاف ، و إرسال المعلومات ، ولكن بعيد النظر كان يدري بأن الطائرات ستنهض بأعمال أشد خطورة في حرب المستقبل ، ستكون مدفعية طائرة وقوة هجومية غلابة ومطية سريعة تنقل الجنود ومعداتهم وسلاحاً من أسلحة التدمير والفوضى وحرب الأعصاب . . فأخذت الطائرات إلى ميدان التجربة والفحص وأعدت بخير ما استطاعه العقل البشري من تجهيزات حتى أخرجت المصانع هذه الأنواع الفريدة من

الطائرات ؛ وأصبحنا فإذا بأجواء المعارك ذات خطر شديد وتأثير حاسم فى سير القتال ونتائجه

والذى اختص الدبابة بفكره ومصنعه فتح ذراعيه للطائرة ؛ وراحت ألمانيا تعمل بقوة منقطعة النظير — لا ينافسها فيها غير روسيا — لإنتاج الطائرات والدبابات ؛ وأصبح لديها قبل نشوب الحرب أسطول جوى حديث وأعظم حشد من الميكانيكا فى هذا العصر.

وفى دراسة الألمان للدبابات والطيارات بدأ تجهيزهم للحرب الجديدة ووضع نظمها وخططها واختيار ميادينها ؛ فالحرب الثانية قد انتهت ، والاستحكامات القوية لم تعد ذات فائدة . . إن الحرب ستنطلق فى ميادين مكشوفة فالأسلحة المطلوبة هى الطائرات والدبابات والمدفعية المحمولة على عجلات سريعة . . هذه هى الأسلحة الحديثة التى ستضرب ضربتها المدوية ، وتحدث الهزائم الخاطفة النهائية . . إن الآلة ستقرر مصير الحرب . . أما الحوائط والخنادق والتجهيزات الدفاعية فستحصر أصحابها وتفرض عليهم الهزيمة وهم متسترون خلفها . .

ومع أن فوش كان قد نبه قومه إلى أن الروح الهجومية هى التى تكسب النصر ، أو كما قال « إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع » فان النظرية الحربية الفرنسية بقيت النظرية الدفاعية تأثراً بالثبات القديم فى الخنادق الذى صد عنهم الغزو وأوقف العدو ، كما أن السياسة الفرنسية العامة لم تكن تفكر فى فتوح جديدة أو أى مقاصد هجومية ،

وكان كل ما يشغل فرنسا هو منع الغزو وايقاف أى اعتداء على حدودها ..
وكانت الحرب تبدو مستحيلة الوقوع فلم تشغل فرنسا بمتاعب الاستعداد ،
ولم تقدم على التدخل المسلح فيما وقع من أحداث، حتى فقدت المعاهدات
قوة الارغام ، وحتى أفلت الأمر من يدها وضاعت فرص كثيرة .

ففرنسا المنتصرة المطمئنة بما نالته فى الحروب الماضية من ضمانات
كانت تأمل أن تبقى أقوى دولة عسكرية فى أوربا ، كما كانت واثقة
من قوة بريطانيا ذات السيادة البحرية المطلقة ، وكان الذى يعرف
شعور الحلفاء يستطيع أن يعبر عنه بهذه الجملة « نملك ما يكفى ونستطيع
أن نعطى وأن نصلح ! » وكان معنى ذلك طغيان موجة المسالمة والتغاضى
عن كثير مما حدث حتى حطمت ألمانيا ما حولها من قيود واستعادت
سلطانها المفقود ! فلم تتحرك فرنسا وحلفاؤها بحزم لمنع هذه المحاولات التى
كانت تنطوى على خطر كبير يهدد سلامة فرنسا وصفاء العالم ، وحاولت
أن تحارب القوة بالسياسة أو أن تحمى السلام بالكلام . . بل طرقت
كل سبيل لمنع الحرب إلا السبيل الوحيد الذى كان ينتهى بمنعها
وهو الاستعداد للحرب ، فإنه لا يقاوم القوة إلا القوة ، ولا يثبت
الأمن والسلامة إلى الاستعداد للذود عنهما . . ولكن ما عملته فرنسا
وحلفاؤها كان مبنياً على سياسة السلام ، والاقتصاد فى الدماء والآلام
فكان الخوف من ويلات الحرب أول كارثة تعرضت لها فرنسا
فاستهدفت بسببها إلى حالة محزنة من الضعف وعدم الاستعداد مما

أطمع فيها العدو فأعدّ عدّته لضربة حاسمة وحيدة .

فهؤلاء الذين لم يريدوا الحرب قد تسببوا فى إضعاف فرنسا وإبلاغ الأداة الحربية إلى حالة متناهية فى السوء بل إلى انهيار شنيع ، فكانت فرنسا تزداد اقترابا من الحرب ، ومن حرب لم تستعد لها فتصبح أمام تجربة شديدة تقتلع عظمتها ومجدها . . وقد ارتاع المحاربون بما أوصلته إليهم الدعاية عن نوع الحرب التى سيصلونها ، فلم يكن يشغلهم ما سيلاقونه فى الميدان بقدر ما فكروا فى ذويهم . . كانت الحرب ستتخطى الحدود المعروفة إلى داخلية البلاد فتصيب الطائرات مدنهم وقراهم ، ويتعرض أهلوها لويلات الحرب . . ووجد المدنيون أنفسهم فى غير وقاية من الغارات الجوية ومن الغازات ، وأفزعتهم الدعاية المثيرة المرهقة للأعصاب . . ولهذا هتف الجميع يوم « ميونخ » وأقيمت صلوات الشكر والابتهال ، وطلب أحد أعضاء البرلمان الفرنسى تسمية أحد الشوارع الرئيسية باسم « شارع ٣٠ سبتمبر » .

وقد كان بين الفرنسيين من تنبه إلى الخطر وأبصر التهديد الذى تتعرض له سلامة فرنسا ، وانتشر هذا الشعور بين الضباط الشبان الذين هالهم الأمر وأحسوا بالمصائب المحدقة بوطنهم ، فانبعثت بينهم روح النهوض وأحست عقولهم بضرورة تقوية الجيش وتخليصه من التقاليد الجامدة ، وبعث حياة عسكرية جديدة ناشطة بين رجاله ، وتزويده بأداة حربية ضخمة لا تتساوى معها أى قوة عسكرية أخرى

فى العالم كى تظل آمنة وكى تضرب بشدة فى الساعة المناسبة .. وكان بين المتحمسين للجيش ولفرنسا « الكولونل ديجول » فقد حاول إقناع القيادة الفرنسية بما تحتاجه فرنسا ، وقدم مؤلفيه الشهيرين « فرنسا وجيوشها » و « إلى جيش الغد » ، وكان ديجول يفهم عصره ، عصر البترول والقوى الآلية

ولهذا طالب بالمدرعات فلم يجد آذاناً صاغية، وفى الوقت الذى كانت فيه القيادة الفرنسية تنظر إليه كرجل جرىء يطالب بأعمال ثورية على تقاليد الجيش* كان المراقبون العسكريون فى ألمانيا يطالعون آراءه ويناقشون تعاليمه .. فغنمت ألمانيا من ديجول ما أراده هو لفرنسا .. وظلت القيادة الفرنسية على رأيها وخططها ولم تنجح أية محاولات للتأثير عليها ، فبقيت مصرة على نظرياتها التقليدية فى الحرب الثابتة والعمليات الدفاعية ، وكان خط ماجينو قد أفترهمة فرنسا وأقعد نشاطها ، ولم يدعها تبصر ما وراءه من تجهيز واستعداد ، فقد ظنوا أنهم أغلقوا الباب واستراحوا إلى الأبد . . ولكن . . كانت هناك أبواب أخرى

أما النظريات الألمانية فكانت مشتقة من روح العصر

---

* كثيراً ما ينظر إلى أصحاب الآراء الجديدة والنازعة إلى الرقى كأنهم من أصحاب الأفكار الشاذة وإلى آرائهم كأنها خيالات ، فهناك مثلا فى محفوظات وزارة الحرب البريطانية رسم دبابة عرضت سنة ١٩١١ وكتب عليها (حفظ) مع عبارة (الرجل مصاب بالجنون) ! !
ثم نرى اليوم أن القلاع المصفحة هى التى تكسب الحرب

الميكانيكى الجديد ، وهى الغزو الخاطف بجموع ساحقة من الطائرات والدبابات المحمولة والمشاة الميكانيكية ، تؤيدها أسلحة خفيفة تعمل على النيل من قوة العدو المعنوية . . وقد كان من عوامل النجاح فى هذه الخطة أن العدو مقيم على حاله القديم ، وأن الأداة الحربية الجديدة ستقابل بذات الأسلوب الجامد الذى انتهى سلطانه من ربع قرن

وإذن فقد كانت الحرب موشكة على الوقوع بين ندين غير متكافئين ، أحدهما يلقى بأسلحة جديدة ويعمل بخطط مستحدثة ، والآخر لا يملك غير ميراث قديم من الأسلحة والآراء المتأثرة بالماضى ، ثم تشابكت النظريتان اشتباكا عملياً فى الحرب الأهلية الأسبانية ، وأنزلت القوات الميكانيكية أمام ستار مسرح التجارب ، واستخدمت الطائرات والدبابات تحت ملاحظة المراقبين العسكريين الذين تتبعوا القتال وسجلوا ملاحظاتهم ووضعوا النظريات الجديدة لتوجيه دفة الحرب الخاطفة وسوق القوات الحديثة ، وعددها وميادينها ، وأساليب المفاجأة ، وعوامل النجاح وعلل الاخفاق . . كل ذلك قد عرف ودرس خلال الحرب الأسبانية الأهلية ولذلك جاءت الحرب العالمية الثانية ، الحرب الحقيقية أدق نظاماً وأروع تبويباً

كانت الميادين الأسبانية حقول تجارب، راقب فيها الاخصائيون صورة مصغرة لما سيحدث فى المستقبل ، وكانت اللاحظات التى دونت والتعديلات التى أدخلت هى مجموعة الخطوط الرئيسية التى تتلون منها

صورة الحرب الحديثة ، فوضع التصميم و بنيت الخطة العامة . . فلما كان الفجر الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ هبت العاصفة العسكرية الماحقة من حدود ألمانيا ، وانطلقت قوات البرق بسرعة جامحة وقوة غلابة فوطئت بعجلاتها وشرائطها الضحية البولونية ، و إذا بإحدى القوى العسكرية المشهود لها فى أوروبا تنهار تحت أقدام العدو ، أو تحت عجلاته وشرائطه . .

بالأمس كانت التجربة الأسبانية ، فلم تحفل بها القيادة الفرنسية ، بل رأت فيها نصراً للأسلحة المضادة للدبابات وخذلاناً للمدرعات . و بالأمس القريب أخذت الحرب تمزق بولندا وتعصف بكيانها وتقضى فيها قضاء مبرما ، وها هو الجنرال البولندى سيكورسكى ، يقدم تقريره المؤلم عما حدث لبولندا فيقول « لقد هزمتنا العجلات » ، فلا صرخات الضباط الشبان ولا تحذيرات ديجول ومن رأى رأيه ولا أى دروس عرفت من التجارب السابقة أمكن أن تحول رئاسة هيئة أركان الحرب الفرنسية عن سياستها وجمودها ، محاولة بذلك أن تبقى ثقة الشعب بما أسمته « درع فرنسا » . . فالألمان « لن يمروا » ! ؟

إن الجنرال جاملان الذى كان رئيساً لهيئة أركان الحرب الفرنسية منذ عام ١٩٣١ هو أول رجل يراه الباحثون فى مأساة فرنسا مقصراً بل مسيئاً لبلاده وجيوشها ، والكل يتساءل : ماذا كان يفعل رئيس هيئة أركان الحرب هذا . . الذى لم يثبت أنه تحرك أو فكر أو عمل شيئاً

لصالح الجيش أو طالب بشيء تحتاجه سلامة البلاد ، وكل ما يذكره عنه المتندرون أنه قال عنـد هبوب العاصفة : « موتوا أو انتصروا » وقد كان جنود فرنسـا فى حاجة لشيء آخر غير النصائح وكلمات التشجيع ولكن هذا هو ما تظفر به الأمم من أمثاله « قادة أيام السلم » .

. . . وجاء وقت الحساب ، ويرى مما أسلفنا من النقائص والأخطاء التى حدثت أن فرنسا كانت مقبلة على المأساة الكبرى التى اتفق كثير من المؤرخين لهذه الحرب على أن من أسبابها ما يأتى : —

(١) الانقسامات الحربية والافتقار إلى الوحدة القومية

(٢) سوء الحالة الاقتصادية

(٣) ضعف الروح الاجتماعية فى فرنسا التى عبر عنها الماريشال بيتان بقوله : « لقد عمت روح المرح والسرور وطغت على روح الجهاد والتضحية وكفى الناس أنفسهم مشقة بذل الجهود . . »

(٤) سوء إدارة الإنتاج الصناعى فقد قيل عن العمال الفرنسيين إن اهتمامهم بمصالحهم كان أكثر من اشتغالهم بنجاة فرنسا ، ولم توجههم رياسة قوية لأداء واجباتهم

(٥) ضعف الروح المعنوية ، وقد استطاعت الدعاية الألمانية أن تهدم قوى فرنسا المعنوية فى مدى ستة أعوام قبل الحرب .

(٦) لم تعرف فرنسا قيمة الوقت ، فكانت التجهيزات تعد لحرب مدتها أربع سنوات أو خمس ، ولكن عشرة آلاف طائرة فى عام١٩٣٩

كانت أفضل مائة مرة من مائة ألف طائرة عام ١٩٤١ .

(٧) خطأ الخطة الفرنسية فى اعتمادها على النظرية الدفاعية خلف الحصون وعدم التفاتها إلى ضرورة الاستعداد بقوات كبيرة من الطائرات والدبابات .

. . ودقت ساعة العمليات الحاسمة .

إن الألمان لم ينسوا فون شليفن ، فقد جاءوا هذه المرة أيضاً كما أراد ، فقد كانت نصيحته الأخيرة عند ما حانت منيته قبل الحرب الأولى « اجعلوا الجناح الأيمن قويا » وقد جاء الجناح الأيمن هذه المرة مكوناً من أعظم حشد عسكرى عرفته الحروب ، وجاء فى أقوى صورة تستطيعها المدنية العصرية ، فتقدمت قوات كثيفة من المدرعات غير عابئة بما أقامته المدنية من حصون واستحكامات ، وجاءت فى حراستها ومعاونتها أفواج عديدة من الطائرات الكاسرة التى تقذف الصواعق والهلاك ، والمدفعية المبيدة التى ترسل الحمم وتنشر الدمار والمشاة السريعة ، وقد أقبلت هذه كلها موفورة الاستعداد قوية العتاد .

جاء هذا الحشد العظيم من الجبهة الشمالية ، من ناحية الحدود الضعيفة ، ووجهته الباب الخلفى ، الذى لم يُعن بحراسته . . لأن خط ماجينو قد استنفد جميع القوات المدربة ، ولأن الحدود المشتركة كانت معدة من وجهة النظر الفرنسية لتكون الميدان الرئيسى ، فأصبحت الخطط الفرنسية لاغية ، وضاع الميدان من فرنسا ، وأرغمت على مواجهة

القتال فى جبهة أخرى وظروف لم تكن متأهبة لها .

كان ذلك فى شهر مايو سنة ١٩٤٠ عند ما أفلتت القوات الميكانيكية الألمانية من مرابطها وانطلقت ، بسرعة جنونية ، ترسل صريخها المدوى وهى تنهب الأرض فى طريقها إلى هولندا وبلجيكا ولكسمبورج . . ونزل النبأ كالصاعة على الأمة الفرنسية ، فقد أزفت ساعة المعارك الحاسمة وبدأ القتال الفاصل فى أمر فرنسا ، ويومها أذاع بول رينو نداءه الداوى « لقد جاء دور فرنسا للسير فى الطريق بجنودها وطياراتها . . ولا ريب أننا مستعدون .. لقد امتشقت فرنسا سيفها ! »

ولما تقدمت القوات الألمانية إلى الأراضى الواطئة وقعت القيادة الفرنسية فى غلطة استراتيجية كبرى ، فقدمت قواتها عبر الحدود ، كى تدخل المعركة وتنقذ بلجيكا وتحمى فرنسا . وكان الألمان يتوقعون هذا التدبير وينظمون التدابير لاستقباله ، فأرسلوا طوابير قوية إلى بلچيكا ، إلى معبر القيصر ، بينما اندفعت القوات الرئيسية إلى حدود فرنسا ، وفصلت قوات الحلفاء التى تقدمت فى الشمال وأبعدت عن المعركة الفاصلة .

وانطلقت القوات الميكانيكية فى سرعة عجيبة مهدمة ما أمامها تاركة وراءها الفوضى والدمار ، واستخدمت الطائرات بعنف جنونى ، فنشرت الرعب والفزع ، وأحدثت الخطوب الدامية والكوارث الفادحة ، وهبط جنود المظلات ، وعمل الطابور الخامس . .

وكان مستقبل فرنسا مرهوناً بثغرة واحدة .

فاذا اخترق العدو خطوط الحدود فان كل فرنسى كان يفهم أن المعركة قد انتهت .

وقد حدث الاختراق فعلاً .

ففى الرابع عشر من شهر مايو اندفعت القوات الميكانية تعدو مع مجرى نهر الميز وقنال البرت ، واقتحمت خطوط الدفاع الفرنسية . .

وقال بول رينو « إن الوطن فى خطر » .

وروعت فرنسا بهذا النبأ الصاعق . فقد حدثت « سيدان » أخرى ! وانتشر الخبر على جناح الأثير محوطا بالاشاعات الخطيرة عن الدبابات قاذفات اللهب ، عن الطائرات المنقضة الشديدة ، عن المعركة الخاسرة والغزو المروع . . ثم عن الألمان القادمين !

فقد اجتاز العدو خط الاستحكامات ولم يستطع جيش كوراب أن يعمل لقلة حنكة أفراده وتدريبهم ثم لصعوبة الدفاع عن نهر الميز ، وتقدمت آلاف الدبابات قاذفات اللهب والطائرات ذات الأصوات المزعجة وهاجمت القوات التى وصلت حديثاً ، فحدثت النكبة .

وأسقط فى يد القيادة الفرنسية التى لم تعرف حرب الحركة وامتد خط القتال إلى الغرب .

وفى ١٨ مايو أبعد عن وزارة الدفاع إدوار ديلاديه صاحب سياسة الاقتصاد فى الدماء ، وعزل جاملان الذى كان يعتبر الدبابات

والطائرات أمراً ثانوياً . . وجاء لإنقاذ فرنسا رجلان أحرزا أكاليل الغار مرة سابقة هما : بيتان وفيجان .

وكانت القوات الألمانية المتقدمة بسرعة جنونية قد قطعت طريق التقهقر على الفرق الفرنسية والانجليزية فى الشمال ، وعجزت القيادة الفرنسية عن سحب هذه الفرق فى وقت كانت تعلم فيه أن الخط الفرنسى قد اقتحم بصفة حاسمة ، وقد ترتب على هذا الخطأ فقد خمس عشرة فرقة فرنسية مع الحملة البريطانية فى هذه الفترة الخطيرة . . وقد كان فى استطاعة هذه الفرق العظيمة أن تعدل الكفة .

وقال المستر تشرشل : إن الحلفاء قد خسروا معركة فرنسا بسبب هذه الثغرة التى أحدثتها لسوء الحظ قوة فوق العادة من الفرق المصفحة التى لم تكن متوقعة و بسبب تفوق الجيش الألمانى الهائل .

وفى ٢٦ مايو وصل الألمان إلى بولون وكاليه ، و بعد يومين جاءت الأخبار من بلجيكا بأنه لم يعد فى استطاعة فرنسا أن تعتمد على الجيش البلجيكى . . ثم جاءت الأخبار من دنكرك ، وقطعت فرنسا الأمل فى خيرة جيوشها وفى المساعدات البريطانية !

وجاء شهر يونيو يحمل الكارثة لفرنسا .

وهتف بيتان فى جنود المارن وفردان :

« يجب أن يوقف العدو . . اثبتوا فى أماكنكم ، إن مستقبل فرنسا يواجه تجربة قاسية » .

وحاول ڤيجان أن يفعل شيئاً ، وأبصر الرجل الذى جاء فى وسط معركة خاسرة أنه يواجه مليونى رجل وأربعة آلاف دبابة وألف طائرة ومدفعية مخيفة . . وقتالاً رهيباً .

إن[1] القيادة الفرنسية كانت قد أعدت نفسها لحرب خاصة واستعدت لميدان تعرفه جيداً ، ولم تتدبر ماذا يجب عمله إذا حدثت ثغرة فى خطوط التحصينات، فلما لم تحدث الحرب الثابتة ، ولما ضاع منها الميدان ، انقلبت الأمور وعجزت هذه القيادة عن مواجهة الموقف ، وأوقعها ذلك فى غلطة استراتيچية فاحشة ، وهى سوق خيرة جيوشها إلى الأراضى البلچيكية دون تقدير لما قد يترتب على هذا المسلك الأخير من أضرار بمركز فرنسا التى لم يعد لحمايتها فى هذا الميدان الخطير سوى جيوش لم تعدّ إعداداً كافياً لهذه المهمة الخطيرة . . فجاء لحراسة الجبهة الجنرال كوراب ، هذا الرجل الذى كان كبش الفداء ، فوجهت إليه اتهامات التقصير والخيانة مع أنه لم ينقطع يوماً عن المطالبة بالإمدادات ، ولم يكن له من حديث إلا عن حاجته للمواد الحربية والأسلحة . . وكان مركز قيادته للجيش التاسع فى فيرفينيس ، وإلى يساره الجيش الأول بقيادة الجنرال بلانكار فى سان كانتان ، وإلى يمينه الجيش الثانى بقيادة الجنرال هونتزيجر مواجهاً لكسمبورج .

وكان جيش كوراب المواجه للحدود البلچيكية يغطى قطاع الميز وسيموا وچيڤيه ، وكان دفاعه يعتمد على ملاحظة الكبارى التى

على نهر الميز وخطوط الاقتراب إليهـا ، وكان مقرراً كأمر طبيعى فى الدفاع أن تدمر الكبارى لتعطيل الزحف و إيقاف حركات العدو لأقصى حد قبل أن تنسحب القوات إلى الخط الثانى .

وقد كان معروفاً أن الميز نهر قوى يصعب اجتيازه ، ولذلك كانت سرعة عبور القوات الألمـانية لنهر الميز من عجائب عملياتهم التاريخية ، وقد أفصح ذلك عن قوة استعدادهم لعبور الأنهـار وعن مقدار الضعف والارتباك ونوع القتال المضطرب الذى قام به الجيش الفرنسى التاسع ، كما أن الكبارى لم تدمر ، فقد أنستهم العاصفة هذا العمل الحيوى ، هـذا عدا أن الطابور الخامس كان يعمل . . بل كان يحدث أن يتقدم ضابط إلى قيادة ما و يسلم رسالة تقضى بالتقهقر أو بعدم تهديم المنشآت ، فتنفذ الإشارة التى تكون من اختراع ضابط مزور يرتدى الملابس الرسمية الفرنسية !

لم يستطع جيش كوراب مواجهة الموقف بمقاومة فعالة ، فقد فوجئ بقوات عنيفة غلابة ، وأسلوب جديد قوى فى القتال ، وكان يؤمن بأن نهر الميز لا يعبر ، فصدمته المفاجأة ، وتبعثرت وحداته فى غير نظام ، وكان الجنرال هونتزيجر يقاوم بعنف ويدفع بمـا لديه من قوات ميكانيكية ، ثم هدأت المقاومة وبدأ الانسحاب فى الوقت الذى حاول فيه دى لوتر إعادة الاتصال بين الجيشين وتثبيت جبهة دفاعية . . ولكن قوات فرنسية كبيرة كانت قد اختفت أو تراجعت وانقطعت أخبارها ،

وشاعت الفوضى واختلطت الأوامر وتفككت الأعمال الحربية .

وكان الخط الثانى على مسافة أربعين كيلومتراً فى منطقة أفضل تحصيناً بما يكتنفها من مستنقعات وصخور تؤيد دفاعاتها . . وكان من الممكن أن نقاوم بشدة لو أن التراجع تم بانتظام أو كانت لدى الفرنسيين مقدرة على التقهقر بسرعة . . فإن الوحدات المتراجعة لما بلغت الخط الثانى كانت القوات الألمانية السريعة قد سبقتها إليه .

وفى فترة الاضطراب عين الجنرال چيرو للقيادة فى هذه الجبهة بدلاً من كوراب . . ولكن لم تمض فترة طويلة حتى وقع الجنرال الجديد أسيراً فى يد الألمان (وقد استطاع الإفلات بعد ذلك) .

وفى الخامس عشر من مايو ظهرت الدبابات الألمانية شمال نهر الأين بجموع كثيفة تتقدمها الدراجات الميكانيكية وتؤيدها قاذفات القنابل . . وكان الهجوم الألمانى شديداً لم تستطع القيادة الفرنسية حياله أن تفعل شيئاً ، وكان الخطر يتزايد والموقف ينتقل من سيئ إلى أسوأ ، وتراجعت القوات الفرنسية لاحتلال مواقع دفاعية على الضفة الجنوبية للنهر احتلالاً عاجلاً يزيد فى تفككه ما كان واقعاً من الضغط الشديد . . وفى الأيام الأربعة التالية شهد قطاع الاين قتالاً فظيعاً غير إنسانى .

وتقدمت القوات الألمانية لعبور النهر عند « ريثيل » فقوبلت بمقاومة جدية من قوات الجنرال دى لوتر حتى أمكن للقوات الفرنسية

المتراجعة سلامة التقهقر والعبور . . . . ثم بدأ التقهقر العام .

وجاء شهر يونيو يحمل الكارثة لفرنسا .

فقد اخترق خط « ڤيجان » وأصبح العدو على مائة ميل من باريس ، وبالرغم من الجهود الذى بذلها الجيش والتى فوق طاقة البشر وبالرغم من الخسائر الفادحة وما لحق الجنود من إعيـاء شديد فإن المقاومة ظلت مستمرة . . ولكن ماذا تستطيعه وطنية الجنود وحبهم لأرضهم عنـد ما تصب القذائف المميتة عليهم وهم لا يستطيعون أن يردوا بشىء . . . ؟

وكسبت ألمانيا هذا الشوط التاريخى بسرعة خاطفة وذلك للأسباب الآتية :

(١) استخدام قوات ساحقة من المدرعات

(٢) تعاون الطائرات مع القوات البرية

(٣) اتباع خطة الهجوم وعمليات الاختراق

(٤) تحطيم قوات العدو المعنوية بإثارة عوامل الفزع واستخدام وسائل الارتباك والفوضى خلف الخطوط

(٥) نشاط الدعاية ومجهودات الطابور الخامس

(٦) عظم استعداد الجنود وصفـاتهم الحربية الفريدة ، وقوة الروح المعنوية والحماسة المنقطعة النظير التى كانت تنطوى عليها عملياتهم

ووصلت الحالة إلى منتهاها ، وواجهت فرنسا أحرج الساعات

فى تاريخها وانتقلت الحكومة إلى بوردو ، وتقدم الزحف بسرعة نحو باريس . . وحبس العالم أنفاسه وهو يتتبع أعظم مآسى الوجود ، وكان شيئاً محيراً للأعصاب وعنيفاً على فكر إنسان أن تنتهى فرنسا . . هكذا

وفى هذه الفترة التى كانت تقاتل فيها فرنسا الجريحة بآخر رمق من أجل حياتها ولسلامة العالم ، أعلنت إيطاليا الحرب عليها فى العاشر من شهر يونيو ، وردد الأثير قول موسلينى « لقد قضى الأمر وأحرقنا بمحض إرادتنا الجسور التى خلفنا ، هذه ساعة القرارات النهائية ، وقد أعلنا الحرب على فرنسا وانجلترا » .

ولكن فرنسا كانت قد انتهت . . ، ولم يعد شىء فى الإمكان

ورأى مجلس الوزراء وهو يواجه الساعة الفاصلة ، أن يعهد بالحكومة « إلى شخصية عالية تتمتع باحترام الأمة الإجماعى » وعرض المسيو رينو استقالته وقبل الماريشال بيتان تأليف الوزارة .

كان رجل فردان الذى قال ذات مرة « لن يمروا » . . فلم يمروا .

ولكنه يقول اليوم : « إننى أعطى نفسى لفرنسا لأخفف ويلاتها ، وإن أفكارى لتتجه فى هذه الساعة المحزنة إلى هؤلاء اللاجئين التعساء الذين يفرون فى الطرق وقد حلت بهم المحن . . وإنى أخبركم اليوم بقلب محطم حزين . . إنه لا بد من وقف القتال . .

وسلمت فرنسا .



صراع الجبابرة : بين روسيا وألمانيا

أحقيقة فى الـكون أم أسطورة هذا الصراع الخالد الجبار ؟
الملاح التائه

إن العدو يحاول دخول لنينجراد ولـكنه لن يحقق ذلك
يوليو ١٩٤١
ولن نسمح لأعدائنا بدخول موسكو مهما حدث لنا
اكتوبر ١٩٤١
لا تقهقر بعد الآن فى ستالينجراد (من ستالين لتيمشنكو)
ديسمبر ١٩٤٢

لعل أعظم قتال عرف فى هذه الحرب ، أو أعظم قتال حدث على الإطلاق هو الذى شهدته الميادين الروسية منذ بدأ الألمان حملتهم على روسيا فى الثانى والعشرين من شهر يونيو ١٩٤١ فبدأت أعظم الحروب مشقة وخطراً

وقد لعبت روسيا دوراً سياسياً ملحوظاً فى الأشهر القليلة التى سبقت إعلان هذه الحرب العالمية الثانية ولم يخل هذا الدور من غموض

محير فى بعض أدواره ، فقد كانت روسيا غير ممثلة فى المؤتمرات التى كانت تعالج المسائل الدولية عند ما أنذرت بالخطر ، ثم جاء وقت البحث عن حلفاء فحدث التسابق نحو موسكو ، وفجأة أصبحت أنظار العالم متعلقة ببلاد القياصرة إذ أعلن عن ميثاق عدم اعتداء بينها و بين ألمانيا قبيل بدء الحرب ، التى نشطت روسيا فى بدايتها إلى غزو بولندا ثم المغامرة فى فنلندا و بلاد البلطيق .

و إذا كان الاتفاق الألمانى — الروسى قد أحدث دهشة عظيمة فى الأوساط السياسية العالمية وكان ذا أثر بعيد فى مجريات الحوادث ، فإن نقض هذا الاتفاق ووثوب القوات الألمانية على الحدود الروسية كان أمراً أقوى أثراً وأشد خطراً ، بل يمكن اعتباره مرحلة جديدة من مراحل الحرب النهائية .

ولا ينسى الكثيرون كيف وقع نبأ ميثاق عدم الاعتداء هذا مع كثير من الاستياء والاندهاش المحزن ، وقيل إنه لولا هذا الاتفاق لما وقعت الحرب . . وفى الحرب تقع أخطاء كثيرة وقد يكون هناك ما يبررها ، ولكن لا شك فى أنه كان مناورة سياسية من الطرفين ، فالاتفاق بين موسكو و برلين كان لايخلو من مظاهر الخداع ، ولم تتباطأ روسيا فى الانتفاع من هذه الفرصة السانحة فاشتركت فى غزو بولندا واحتلال نصيبها المتفق عليه ، وأغارت على فنلندا و بلاد البلطيق فوضعتها تحت نفوذها . وقد لعبت روسيا ذلك الدور دون أن تفوتها

الحبكة التمثيلية ، نخدعت ألمانيا ، وكانت مناوراتها هذه « أعظم وأبرع سراب خداع فى تاريخ العالم » !

وكان الروس يعرفون فى ألمـانيا عدوهم الطبيعى الذى لا يتردد فى إطلاق سهامه متى سنحت الفرصة المناسبة ، وهم لم ينسوا « كفاحى » وما جاء به من أطماع إقليمية صريحة فى روسيا وعداء مكشوف لأنظمتها وعقائدها وأساليبها فى الحياة ؛ وروسيا عند ما فكرت فى وضع برامجها الجديدة كانت تعرف المكان الذى سيثب منه الخطر نحوها، ولذلك عالجت مواضع النقص ؛ واستكملت استعداداتها على ضوء هذه المعرفة .. ومن أمثلة ذلك أن أغلب المراكز الصناعية بل ثروة روسيا جميعها كانت فى الجنوب ، فعمدت إلى توجيه نشاطها الصناعى فى منطقتى الأورال وسيبريا ، ولم تعد أوكرانيا والقوقاز هما كل مصادر الثروة والإنتاج فى روسيا

وكانت أغلب آبار البترول — وهو مصدر جوهرى من ثروة روسيا — فى القوقاز (جروزنى ، مايكوب ، باكو ، وچورچيا) ، فأخذ العمل ينتقل بهمة كبرى للكشف عن آبار جديدة فى سيبريا والأورال وحول بحر قزوين

كما اتجه الاهتمام إلى زيادة إغلال الأورال من المواد الخام — وقد بلغ إنتاجها ٦٠ ٪ من الحديد — واستغلال الفحم من حوض الدونتز والأورال وسيبريا ، ولم تترك غلة فى مكان معرض للخطر إلا بحث عنها فى ناحية نائية ، وأنشئت مصانع حربية جديدة فى مناطق

بعيدة عن متناول الجيوش الألمانية ، ولم تعد سيبريا صحراء قاحلة للمعتقلين والمبعدين السياسيين ومنفى للمجرمين، ولكنها أصحبت قطراً صناعياً عظيما

فروسيا فى ظل نظامها الجديد و بزعامة حا كمها القدير قد أرست أساس حياة قوية وأعدت لمستقبلها دعاماته المطلوبة ، وحققت أعظم ما يسمح الإنصاف بمطالبة أمة به ، فرأيناها تمتلك الدعائم الأربع التى تصبح بها ذات مناعة ورهبة ، وهى : سلامة النظام ، واستمداد الشعب ، وقوة الجيش ، ومؤازرة الحلفاء . . كما أن الجيش الروسى أيضاً كان يملك الدعائم الأربع التى تمكنه من الصمود وضد جحافل العدو وخوض معارك النصر الحاسم ، وهى : التفوق العددى ، الأسلحة الحديثة ، الكفاية العسكرية لدى القواد والجنود ، والروح المعنوية العالية .

على أن أهم ما نذكره لروسيا فى هذا الصراع المجيد هو قوة روحها ، فجميع من تحملهم أراضى روسيا قد كشفوا عن روح وطنية غلابة ، وفهم صحيح للاستقلال ، و تعلق تام بالدولة وأنظمتها ، وأمثال هؤلاء يدافعون لآخر قطرة من دمائهم ضد كل معتد يحاول غزو أراضيهم أو إهراق حرياتهم ، ولا ننسى أن الكثيرين كانوا يتوقعون انهيار الجبهة الداخلية ، وثورة الشعب وعصيانه ، عند ما تظهر مقدمات العدو عند الحدود ! فجاءت الحوادث مخيبة للظنون ! بل إن الهزائم قد لحقت بجيشهم ومع ذلك لم تتأثر روحهم المعنوية ، بل انقلبوا شياطين حرب ، وظلت الحيوية الروسية تتجدد ولا تنفد

فكل روسى يعتقد أنه جنـدى لأن الحرب الحديثة تتطلب ذلك ، وكل رجل وامرأة كانا يريان أنه لا بد من وقوع الحرب يوما ، والتعرض لويلاتها ، ولذلك وجب الاستعداد ، فلما أقبلت الساعة المناسبة لحمل السلاح لم تجد روسيا جيشها القوى فحسب ، ولـكن وجدت مائة وتسعين مليونا كلهم للحرب .

وفى رأى الروس أن الاستعداد المادى للحرب ليس كل شىء، فيجب أن يكون لدى الأمة استعداد معنوى لا يغلب ، وهم يفهمون أن النكبة الفرنسية لم تكن بسبب هزيمة عسكرية ، ولكن بضياع روح الأمة ، إنهم لم يعرفوا قولة كانت تنقـذهم من الخضوع وتحميهم من الانهيار ، وهى « الحرب إلى النهاية . . علينا أن نستمر حتى نقدم آخر التضحيات الممكنة »

وكان لنهوض ألمانيا منذ عام ١٩٣٠ معنى خاص عند الروسيين وهو اقترابهم من الحرب مع ألمانيا ، وكانوا يفكرون فيما جاء فى كتاب « كفاحى » فاستعدت حكومة الاتحاد ، وفى الوقت الذى كانت فيه البلاد الأوربية تسعى لإنقاذ السلام وتشترك مع غيرها فى مناورات دبلوماتية متوالية واجتماعات واستشارات لا عداد لها ، كانت روسيا تزيد استعداداتها الحربية ، فالجيوش كانت تأخذ قسطها من التمرين والمناورة ، والأسلحة كانت تزداد وتشتد ، والمجهودات الداخلية كانت تبذل بسرعة ومرونة لمواجهة الأحداث المقبلة ، وكان طلبة المدارس

وعمال المصانع وموظفو الدولة لا ينقطعون عن العمل ، ويؤدون خدمة أخرى ليست رياضة عسكرية فحسب ، ولـكنها تدريب ممتاز لإعدادهم لأعمال خطيرة عند ما تعلن التعبئة العامة .

ولم يكن الإظلام وأساليب الوقاية من الغارات الجوية شيئاً فوجئت به روسيا عند ما دهمتها القوات الألمانية لأن « جمعيات الوقاية من الحرب الجوية والـكيمياوية » كانت قد دربت الملايين من الرجال والنساء على هذه الأعمـال ، بل إن المدن الهامة كانت معدة منذ سنة ١٩٣٥ لاستقبال أعنف الغارات الجوية ، فالمخابئ كانت تنساب فى أعماقهـا وتعليمات الوقاية محفوظة عن ظهر قلب . . حتى الألواح الزجاجية فى الشبابيك والأثاثات كانت مجهزة بالورق المصموغ .. ومنذ ذلك الوقت كانت الاستعدادات الحربية مستمرة والتجارب لا تنتهى حتى إن الأيام التى تلت تسوية « ميونخ » كانت لا تفترق عن أيام الحرب ، وبذلك يمكن القول بأن روسيا كانت فى سلام مسلح ، أو أنها فى أيام حربها تـكاد تـكون عادية فى حياتها .

والشعب الروسى قد أدى واجبه كاملا ، ولم يكن ذلك الواجب مقصوراً على إمداد الجيوش بالرجال والعتاد فحسب ، ولكن الشعب كان يشترك فى القتال فعلاً ، وظهرت عصابات « النورلا » فى كل مكان ظهر فيــه العدو . . وبعد نداء ستالين للأمة فى ٣ يوليو ١٩٤١ — عند ما دعا رجال السوفيت لسحق مؤخرة العدو — ظهرت أعمال

بطولة نادرة وشجاعة لا مثيل لها ، فقد اشتعلت نيران حرب انتقامية عنيفة لم تعبأ بالموكب الميكانيكى ، بل هاجمته أينما وجدته ، وكانت منبع خطر دائم وتهديد مستمر ، فالجبهة الداخلية كانت جديرة بأعمال الجنود ، وكل فرد رجلاً أو امرأة كان يعد نفسه محارباً مسئولاً عن سلامة بلاده ودفع أعدائها .

أما الطابور الخامس الذى أنفذ سمومه فى بلاد أخرى وقضى على أسباب مقاومتها فلم يكن له مكان فى روسيا ، ولم تحدث حادثة داخلية تشعر بأنه كان بين الروسيين جميعاً رجل واحد يمت إلى الأعداء بصلة ما .

والصناع الروسيون كانوا ذخر بلادهم ومبعث ثقتها ، فقد عملوا بجهد فوق الطاقة ، ولم تثنهم الخسائر والمحن عن تأدية واجباتهم أكمل أداء ، فالمجهود الروسى كان مستنداً إلى عمال المصانع الذين كانوا يمسكون بالأدوات الصناعية فى يد وبالمعدات الحربية فى اليد الأخرى ، وكان شعارهم « للعمل والحرب » .

من هذا كله يمكن القول بأنه فى الوقت الذى هوجمت فيه روسيا كانت قد بلغت أعظم ساعات حياتها ، ووصلت إلى الذروة من الاستعداد لدخول أعظم حرب فى الوجود .

ولا شك أن هذه الحرب تعيد إلى الأذهان ما كان من أمر حملة نابليون بونابرت على روسيا ، وقد أحرز الفرنسيون حينذاك انتصارات متوالية سريعة ثم فوجئوا بعوامل جديدة لم تكن مقدرة ،

فقد هبط الشتاء وهو أقوى حليف لروسيا ، وظهر جيش الشعب الذى وقف فى وجه الغزاة وحاربهم حرباً لا هوادة فيها ، فكانت العصابات تنقض على فلول العدو وتنسف المصانع وتدمر المنشآت وتقضى على كل شىء ، وتحرق مدناً برمتها ، فكان نابليون يغزو قرى خربة ويدخل مدناً ملتهبة ، وعصف الصقيع بجنوده وقضى فيهم شر قضاء ، فتراجع أعظم الفاتحين وهو يقول : « هزمنى الجنرال يناير » .

أما الحملة الألمانية على روسيا فكانت أعظم حشد بشرى وميكانيكى سيق إلى معركة . وكانت شيئا لا مثيل له من ناحية السلاح والعتاد ، والقيادة الممتازة والقوات المدربة ، والخطط الفنية المستحدثة التى هى نهاية ما وصلت إليه العقول العسكرية الكبيرة فى هذا العصر

وقد انتهت هذه الحرب من مرحلتها الرابعة و بدأت فى مرحلتها الخامسة إذا كنا نطلق المرحلة على فصل الصيف فى روسيا أو فصل الشتاء ، ففى المرحلة الأولى منذ بدأت الحملة فى يونيو ١٩٤١ قام الألمان بعمليات هجومية منقطعة النظير وتقدموا بسرعتهم المألوفة فى الحرب الخاطفة بسبب ما كان لهم من ميزات المفاجأة وأسلحة الهجوم المتفوقة ، وما هو معروف عن الألمان من براعة فى التنظيم وكفاية فى فن الحرب ثم أخذ الجيش الأحمر يعمل لإضعاف هذا الهجوم ومقاومته ببسالة نادرة حتى تراخت شدته و توقفت فى ساحات موسكو ولنينجراد وروستوف ، وهبط الشتاء فبدأت المرحلة الثانية ، وحمل الروس حملة صادقة فردوا

الألمـان للخلف لمسافات كبيرة وكبدوهم فى ذلك الشتاء خسائر فادحة إلى أن عاد الألمان إلى تقدمهم في صيف ١٩٤٢ وحققوا فى هذه المرحلة انتصارات معجزة واستولوا على كثير من المراكز الرئيسية مثل فورونيز وروستوف وسباستبول ، وتقدموا بدرجة خطيرة فى الجنوب حيث كانت غايتهم الأساسية الاستيلاء على آبار البترول .

أما فى الساحة الوسطى فاتجهت خطتهم إلى الاستيلاء على ستالينجراد ومنطقة الفولجا ذلك الشريان الحيوى لروسيا أو عنق الاتحاد السوفيتى ، وحدث فى هذه المنطقة قتال مروع ووقعت معارك هائلة فى شوارع المدينة و بيوتها ومصانعها ، ثم أنقذت ستالينجراد بفضل مقاومة الجيش واستبسال السكان المدنيين . . و بدأت المرحلة الرابعة فى شتاء ١٩٤٢ وانتقلت المبادأة مرة ثانية إلى الروس ، فرفع الحصار عن لنينجراد واستعيدت مساحات كبيرة من الأرض ، وكان ذلك النجاح ملحوظاً بصفة خاصة فى الساحة الوسطى أكثر من الساحتين الشمالية والجنوبية ، ثم استطاع الألمان الصمود بعد معارك كبرى وقتال فاجع ، وأخيراً بدأت المرحلة الخامسة ببدء بواكير الصيف ، والقتال الآن على أشده بين ندين قويين وخصمين عنيدين .

ولا شك أن موقف الجيش الروسى واستماتته فى القتال ، ثم روح الشعب الروسى التى لم تتأثر بالهزائم ولم تهزها الكوارث الفادحة والمحن والآلام لما يستدر الإعجاب حقاً .

ويحارب الألمان فى روسيا ثلاث قوى شديدة البأس : الجيش والشعب والشتاء ، وقد سجلت روسيا بكفاحها صفحة بطولة وجدارة حربية نادرة فى هذه الحرب العالمية الثانية ، ويكفى أن نفكر فيما كان منتظراً من التطورات إذا لم تكن روسيا قد صمدت ! وهل ينسى التاريخ « موسكو ١٩٤١ » عند ما كانت موشكة على السقوط ، وكانت أوامر القيادة الألمانية تقضى بالاستيلاء عليها « مهما كان الثمن » .. وأخذت الآمال تضعف يوماً بعد يوم ، وكانت الإغارات الجوية على المدن والمصانع مؤذنة بالدمار والفناء ، وإن المدينة على شفا أيام من السقوط أو على قرابة ساعات ! ؟ فماذا حدث ؟ ! !

كان الألمان يجمعون لضربتهم النهائية ، والروس يلمون شتات عزائمهم وقواهم ليبدوا فى حياة وطنهم الذى كان يقترب من ساعة الانهيار . . . ولكن حدثت المعجزة الروسية وصمدت موسكو وأقبلت الفرق الاحتياطية ، وبدأت الأوضاع تتحول وانتقل الأمر من قيادة إلى قيادة ، وبدأ التراجع الألمانى لأول مرة فى هذه الحرب ، وأنقذت موسكو وتغيرت حالة القتال فى روسيا منذ السادس من ديسمبر عام ١٩٤١ ثم الكفاح المجيد فى لنينجراد .

وقد كانت على قيد مرحلة لتصبح فى يد الألمان وتغير مجرى الحرب .

وبدأت معارك هجومية مروعة انتهت بأعظم انتصار للصمود المكتسب من الروح المعنوية العالية .

ففى أغسطس ١٩٤١ كان لدى القوات الألمانية أمر بالاستيلاء على لنينجراد ، واتجهت نحو المدينة حشود كبرى وقوات تزيد على ثلاثمائة ألف مقاتل وألف طائرة وألف دبابة .

وأذاع فورشيلوف — قائد جيوش الشمال — نداء إلى «الزملاء والعمال» قال فيه :

« إن العدو يحاول دخول لنينجراد ولكنه لن يحقق ذلك . . ولن يضع أعداؤنا أقدامهم فى مدينتنا العامرة ، وعلى الأهالى المدنيين أن يحذوا حذو مواطنيهم الذين يدافعون فى ميدان القتال . . »

و بعد أيام مريرة حدثت معجزة أخرى وتوقف الزحف على لنينجراد وخرج الأمر من يد الألمان مع ما بذلوه من جهود فوق الطاقة وما أحدثوه من تدمير وقسوة و براعة فائقة فى عملياتهم الهجومية ، فأعلنوا محاصرتهم للمدينة واستمر هذا الحصار سبعة عشر شهراً حتى جاءت ساعة الانقاذ ورفع الحصار فى منتصف يناير ١٩٤٣ ، وقد أماط فك الحصار عنها عن أفجع مآسى الآلام والكوارث وما حل بأهلها من المحن بسبب الجوع والزمهرير فوق ما أصابهم من ويلات الحرب وفتك الطائرات ، وقد بقيت وسط هذا الموت المتسلط على المدينة روح المقاومة قوية لا تضعف وأسباب الكفاح لا تنتهى ، حتى كان الفجر الثانى عشر من يناير إذ بدأت المدفعية الروسية تمطر مواقع الألمان وابلا من نيرانها ، فتحطمت الاستحكامات وتراخت صلابة العدو فدخلت جيوش الانقاذ .

أما ستالينجراد فكانت حدثا لامثيل له .

وقد وصفها الماريشال جورنج بأنها « أعظم معركة للبطولة فى التاريخ » .

المدينة التى كانت شوارعها ميادين حرب و بناياتها معاقل ورجالها ونساؤها جنود عاملون .

فنى الثانى عشر من سبتمبر ١٩٤٢ وصلت طلائع الألمان إلى ستالينجراد بعد زحف عنيف من ثلاث جهات امتد لأميال كثيرة على طول ساحل الفولجا ، ودلت البوادر جميعاً على أن المدينة لا محالة ساقطة ، وكان إطباق الألمان عليها فى صورة نصف دائرة فولاذية أخذت تضيق شيئاً فشيئاً ، وكان فقد ستالينجراد معناه وضع حبل المشنقة فى عنق الاتحاد الروسى ، وقد جاء فى رسالة لمندوب وكالة يونايتدبرس : « والظاهر أن القيادة الألمانيــة قد قررت ألا يقف شىء فى طريق تصميمها على الاستيلاء على المدينة ، وقد حضر إلى الميدان أعضاء من هيئة أركان حرب هتلر ، وفون كيتل ، والمعتقد أن وجود هذه العقول العسكرية الجبارة ناشىء من شعور هتــلر بأن اليابان تراقب معركة ستالينجراد بأشد الاهتمام ، فإذا صدقت الأنبـاء بأن اليابان وعدت بالهجوم على روسيا بمجرد استيلاء الألمان على ستالينجراد والفولجا عرف إذن سر الجهود المشهورة التى يبذلهـا فون بوك فى مواصلة غزوه وهجومه . . » .

وإذن ، فقد كانت معركة ستالينجراد هى معركة « روسيا » الأخيرة ، بل كانت أيضاً المعركة التى ستجر حوادث تاريخية أخرى كهجوم اليابان على روسيا مثلا . . أو حوادث أخرى !

وكانت الطائرات الألمانية تهاجم المدينة بقساوة ليل نهار فوجاً بعد آخر ، وتلقى عليها ألوفا من القنابل المحرقة والقنابل شديدة الانفجار، وأطلقت مدافع الحصار الضخمة نيرانها العاتية فدمرت المدينة حياً بعد حى ، وشارعا بعد شارع ، وانعقدت ألوية الدخان الكثيف فخيل للألمان أن المدينة قد ضعفت مقاومتها وسكن ثائرها ، فتقدمت الدبابات تتبعها المشاة للقضاء على الفريسة ، ولكنهم ما كادوا يتقدمون حتى تصدت لهم الجموع من الجيش الأحمر والمدنيين المسلحين ، وبدأت الملحمة الكبرى والصراع الخالد بين الفريقين ، فى كل شارع ومنزل ، واصطدمت الحربة بالحربة والتهمت النيران النيران ووقع ثلاثة أرباع المدينة فى قبضة الألمان .

وصورت البرقيات الهجمات الألمانية بأبشع الصور ، وتكهنت باحتمال سقوط المدينة ، واعترفت موسكو صراحة بخطورة الموقف فإن أعنف معركة كانت على وشك الانتهاء ، وكانت الطائرات تضرب منطقة المعركة ضربا منظما ، متراً فمتراً ، حتى لا تترك شيئاً قائماً ، مما جعل مهمة المدافعين صعبة قاسية ، فاضطروا من فرط الإعياء إلى التخلى عن بعض الأراضى ، تحت وطأة الهجمات المتوالية التى قامت بها خمس

وعشرون فرقة تؤيدها جموع هائلة من الدبابات والطائرات ، وكشف الجنود عن روحهم القوية وأظهر السكان المدنيون بسالة فائقة ، وكان القتال يتنقل بين شارع وآخر ، والمجازر الهائلة تحدث فى كل طريق ، ولم تعد فى ستالينجراد شوارع أو ميادين أو متنزهات كما لم يبق بها من المصانع العظيمة سوى بقايا مكدسة من المواد والأنقاض وملايين الشظايا ، ونسفت الدور ودمرت المبانى ، ولم تعد المدينة سوى أطلال خربة وجدران مهدمة تحمل آلاف الإصابات ، ومع ذلك ظل القتال ناشباً ، وصمدت حامية المدينة فى الشوارع والبيوت والخرائب ، وسجلت الخسائر فى الأرواح أرقاما قياسية مخيفة .

وقد رسم الكاتب الروسى الرفيق سيمنوف صورة لستالينجراد فى محنتها برسالة أذاعها مراسل الأهرام من لندن فى شهر سبتمبر وقد جاء فيها « إذا رفع المرء بصره إلى سماء ستالينجراد رأى الجو ناراً مشبوبة وأحس أن الأرض تهتز على مدى أربعين ميلا اهتزازاً عنيفاً . . إن شوارع ستالينجراد قد تهدمت مبانيها وأصبحت أثراً بعد عين ، وتركت القنابل الشوارع الأخرى أنقاضاً متراكمة ، وتراكمت الشظايا فى الممرات حيث كانت تتساقط كالمطر . فليست فى ستالينجراد بقعة مأمونة الجانب أو مكان لم تصبه قنابل العدو ، ولكن هذا كله لم يفت فى عضد سكانها ولم يضعف روحهم المعنوية . . » .

وفى شهر أكتوبر بدأت مرحلة جديدة فى القتال فقد تراخت قوات الهجوم ، وتوقفت الحرب الخاطفة بين الطرق والبنايات ، وأخذت المقاومات الروسية تزداد شدة وعنفاً فى الوقت الذى بدأ فيه الشتاء يبعث أجناده الحليفة لروسيا ثم أقبلت جيوش الخلاص التى كان يعدها تيموشنكو ، إذ زحف جيشان من الشمال والجنوب فى منتصف نوفمبر واستطاع جيش الإنقاذ الآتى من الشمال أن يتصل بحامية المدينة و يفك حصارها بعد ثلاثة أشهر دامية .

وفى الثانى من فبراير سنة ١٩٤٣ انتهت معركة ستالينجراد التاريخية بعد تطاحن عنيف ودماء مراقة وحصار وقتال داما ١٤٢ يوماً .

وصدر بلاغ خاص جاء فيه : « انتهت جميع أعمال القتال فى ستالينجراد ، وألقت قوات العدو التى كانت تواصل الحرب فى شمال المدينة سلاحها ، واستسلمت وأسر قائدها اللفتننت جنرال شترايشر » وأعلنت المقامات الرسمية عن إبادة ثلاثة وعشرين ألف رجل ، وأن عدد الأسرى منذ ١٠ يناير كان ٩١ ألفاً بينهم ٢٤ قائداً منهم القائد العام الفيلد مرشال باولوس .

***

لقد كانت روسيا مسرحاً لأعظم حرب جمع لها الطرفان المتقاتلان أكبر حشد من الرجال والمواد عرف فى تاريخ الحروب منذ فجر العالم ، ووقفت فى كلا الجانبين عشرات الرؤوس المفكرة تدير القتال بآخر ما أمكن أن يصل إليه الفن العسكرى من مراتب الكمال ، وزودت القوات بأسلحة هى آخر ما استطاعت المدنية العصرية إدراكه ، فكانت بذلك أقوى حرب جامعة وأعظم كفاح عرف فى تاريخ الصراع البشرى .

١٩٤٣/٣/١/٩٩٩

